

الفصل الثاني

أرأؤه الإصلاحية

المبحث الأول

- ويتضمن على الموضوعات التالية:-
- الإصلاح من الفرد إلى الجماعة:
- الإصلاح يبدأ من القلب.
- عمومية الإصلاح لجميع الفئات والطبقات.
- إصلاح الفرد في إطار الجماعة.

الإصلاح من الفرد على الجماعة

" لقد اختلفت مداخل الحركات الإصلاحية " فهناك من يعتقد أن اليقظة الإسلامية قد بدأت من منطلق ديني على يد " أحمد بن تيمية " بغية الإصلاح الديني وإرساء القواعد السليمة في المجتمع الإسلامي من شتى النواحي، سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية في إطار القرآن والسنة، هذه البداية هي التي أثمرت الدعوات الوهابية والمهدية والسوسية لتشابه الظروف في البيئة الطبيعية والأمور الدينية والأحوال الاجتماعية والأوضاع السياسية التي عاشها المسلمون ^(١) في الأقطار العربية الإسلامية تحت الحكم العثماني وما فرضه من عزلة وجود فكري .

ويلحق بركاب هذه الحركات: عبد الحميد الزهراوي وهو من زعماء النهضة في سوريا (١٨٧١-١٩١٦م) وجمال الدين الأفغاني، حيث أكدوا على أن الإصلاح الديني يتداخل مع السياسة تداخلاً عميقاً .

وإن كان هناك على الطرف الآخر - وهو طرف ضعيف - من يقول بعكس ذلك تماماً إذ " يقرر: أن الإصلاح يكمن في الدولة وليس عن طريق الدين " ^(٢) و " أن الإسلام دين لا دولة " ^(٣).

ومن جانب آخر يرفض بعض المصلحين اتخاذ السياسة طريقاً للإصلاح، لأن الإصلاح الفوقي الذي يبدأ من الحكومة تتولد عنه مشاكل لا حصر لها، وخاصة إذا كانت الآراء الإصلاحية لا تتوافق مع أهداف الساسة وتتعارض مع مطامعهم .

ومن هؤلاء الرافضين السير في أشواق السياسة ومداخلها النفاقية الإمام " محمد عبده

(١) د/ محمد مدوح علي محمد العربي: الأخلاق والسياسة في الفكر الإسلامي والليبرالي والماركسي، ص ١٣٩ الهيئة المصرية للكتاب - ٢٠٠٦م بتصرف.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٦.

" الذي صور السلطة بأنها آلهة الشر، فيقول: "وتمخضت السلطة لآلهة الشر، فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله، وكانوا على ذلك قادرين" ^(١)

ولعل رفض محمد عبده للسياسة، هو الذي دعاه أن يتخذ من التربية وسيلة للإصلاح ويرفض أن يسير على درب أستاذه " جمال الدين الأفغاني " الذي أتخذ السياسة طريقاً للإصلاح بل إن الأفغاني رفض نصيحة تلميذه " الإمام محمد عبده " الذي عرض عليه أن يذهب معاً إلى مكان بعيد عن متناول الحكومات المناوئة لإصلاح الشرق ونهضته، وأن يقيم مدرسة تربي القادة

والزعماء ودعاة الإصلاح، وأن يكون هذا هو سبيلهم لنشر دعوتهم للإصلاح والتجديد" ^(٢)

ولعلنا نلاحظ التوافق الفكري بين الإمام محمد عبده والنورسي من حيث رغبة الأول في إقامة مدرسة تربي القادة ودعاة الإصلاح لنشر دعوة الإصلاح والتجديد.. ولكن لم يستطع تحقيق هذا الحلم، بينما الثاني (النورسي) استطاع أن يقيم مدرسة تربية في كل مكان كان ينفي إليه أو يتم عزله فيه .

بل أن الواقع والحقيقة تقرر أن النورسي أستطاع أن يجعل من السجن مدرسة تربية ولعل طلابه ومريديه المنتشرين في جميع أنحاء العالم لنشر دعوة النور خير دليل على ذلك.. وعلى ضوء ما سبق يتضح أن قضية الإصلاح ومن أين يبدأ قضية شائكة لأي مصلح..

فهل يبدأ من الفرد، أم يبدأ من الجماعة، أم يتم الإصلاح من السياسة باعتبار: أن الإسلام دين ودنيا، أم أن الإصلاح يتمحور من خلال أن الدولة دنيا لا دين، وأن الإسلام دين لا دولة ؟..

وعلى أي حال فإن النورسي كان واقعياً وعملياً ومفكراً لماحاً وذواقاً، عندما أبتعد عن

(١) السيد يوسف: الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد، ص، ٦٤ سلسلة الفكر، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٧ م.

(٢) السيد يوسف: الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد، ص ٣٤، أنظر من المرجع نفسه، الفصل الثاني " مواقف سياسية " .

التخمينات والتفكيرات الخيالية ونزل بمنهج الإصلاح إلى أرض الواقع، فوجدها غير مشدودة الانجذاب لإتجاه الإصلاح من ناحية السياسة...، فولي بوجهه وثاقب فكره وبمنهجه شطر الإصلاح للفرد " فالفرد الذي له نظر عام وشعور كلي، هو الذي يصلح أن يكون المخاطب للصانع الجميل والمائل في حضوره، ذلك لأنه يصرف كل نظره العام وعموم شعوره الكلي إلى التعبد لصانعه، وإلى استحسان صنعته وتقديرها، وإلى شكر آلائه ونعمة..

فالبداية يكون ذلك الفرد الفريد هو المخاطب المقرب، والحبيب المحبوب " (١)

لقد أدرك النورسي أن ميدان الجهاد بالنسبة له قد انحصر في تربية نفوس الأفراد على الإيمان وغرس القيم..

" تربية تجعل الإنسان إيجابياً، يعيش في حركة فكرية ونفسية وجسدية بناءً بعيداً عن السلوك التخريبي..

تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمي فيه القدرة على الإنتاج والإبداع بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة..

تربية تعد الإنسان إعداداً إنسانياً ناضجاً لممارسة الحياة بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام، لأن الحياة في نظر الإسلام: عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس في الخيرات...،

تربية تجعل الشخصية الإسلامية متزنة، لا يطغى على موقفها الانفعال ولا يسيطر عليها التفكير المادي ولا الانحراف الفكري المتأني من سيولة العقل وامتداد اللامعقول.

تربية تبني الإنسان على أساس وحدة فكرية وسلوكية وعاطفية متماسكة على أساس من التنسيق والتوافق الفكري والعاطفي والسلوكي الملتمزم الذي لا يعرف التناقص ولا الشذوذ.

تربية تجعل الإنسان يشعر دوماً أنه مسئول عن الإصلاح، وأنه يجب عليه أن ينهض

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ترجمة إحسان قاسم، ص ٢٥٢.

بمسئوليته ويقود نحو شاطيء العدل والسلام.

ومما يكاد أن يكون معروفاً، أن أخطر ما تتعرض له الأمة هو هدم شخصيتها الإسلامية هدمًا عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً.

ولعل طبيعة الهدم لم تنشأ إلا من جراء إتهام الشخصية الإسلامية، وما أعقب ذلك من غياب الروح الرسالية التي تتدفق بالحركة نحو الكمال وتشع بالرشد والهداية •

ولهذا نجد أن الإمام النورسي ينكب على إملاء رسائل النور على طلابه ومجبيه لتضع العلامات المضيئة في الطريق لتكون الكلمة أداة بناء تساهم في صنع الخير وإشاعة الود والمحبة بين الناس " (١).

" ويضع النورسي منهجاً لا بد لكل مصلح أن يلتزم به... وهو: أن يبدأ المصلح بإصلاح نفسه أولاً فيقول: (من لا يصلح نفسه لا يمكنه إصلاح الغير) علينا أن نرشد أنفسنا ثم نرشد غيرنا •

وثانياً: أن يكون مراد المصلح من الحركة الإصلاحية الإيجابية، وأن يكون الشخص المصلح مرآة للإسلام دون حجاب أو ستر لنور الإسلام •

ولهذا ينادي النورسي بالتمسك بالأخلاق الإسلامية قائلاً: لو تمسكنا بالأخلاق الإسلامية وأظهرنا بأفعالنا هذه الكمالات لدخل أتباع سائر الأديان الإسلام أفواجا •

ويرفض النورسي الحركات الثورية (التخريبية) لأنها تضر بالإسلام والمسلمين من نواح شتى، لأن الإسلام مؤسس على القلوب (النقية)، والحركات الثورية تؤسس نظاماً ظاهرياً ولا تصل إلى القلب •

ويؤكد النورسي " أن الغلبة على المتمدنين هي بالاعتناع، وليس بالإجبار كما هو شأن المتوحشين " ويوصي المصلحين بترجيحهم منهج الاعتناع والإثبات دائماً، فإن الإسلام لا يقبل النفور والعداوة والهجوم، ولا يحتاج إليها لأنه نور وانتشار نوراني أيضاً...

(١) أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح: النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص ٥٨- ٦٠ أعمال مؤتمر ٩٢،

وكان النورسي يعارض القائلين بأن الحركة الإصلاحية لا تتحقق إلا بالقوة المادية، فإن الحركة المعنوية وإرشاد أفراد المجتمع وتنويرهم هو من أهم الحركات، لأن الحركات الثورية - على الأكثر - تضر الأبرياء من النساء والأطفال وغيرهم" (١)

ويتضح لنا أن النورسي يسير على المنهج الإسلامي المعتدل الصحيح الذي بذره حضرة "النبي صلى الله عليه وسلم" بذور التوحيد الحكيم، فسيطر على القلوب والعقول بمنهجه الإصلاحية القويم الذي أرساه رب العالمين في كتابه الكريم {اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} (٢)

ولعل النورسي يصف لنا علاج ما نشن منه في عصرنا الحالي نتيجة بعض الخلايا السرطانية المتمثلة في بعض المخربين المأجورين الذين يتسبون إلى الدين إنتساباً شرفياً ويتلبسون بلباس الكلمة العفيفة ويتخفون بها، ألا وهي "مصلح" و"مجاهد" وهم في الحقيقة أبعد الناس عن هذه الكلمات، لأنه زُج بهم لينفذوا أغراض الحاقدين تحت شعار الدين، فأسأوا بهذا إلى هذا الدين السمح وشوهوا صورته وحملوا السلاح وقتلوا به إخوانهم من الأبرياء المسلمين بل وكانوا سبباً لجلب الهم والغم متمثلاً: في أعداء الإسلام لنسف ومسح العقيدة وسلب خيرات ومقدرات الشعوب المسلمة .

فيا ليتنا نعود إلى نهج الإسلام، لنظهر إلى العالم بأسره وجه الإسلام السمح الجميل ليدخلوا في دين الله أفواجاً.

الإصلاح يبدأ من القلب:-

" يهدف بديع الزمان في أول الأمر إلى إصلاح الفرد، ويعتقد أن التخريب قد بدأ في القلب ولهذا يلزم البدء بإصلاح القلب، ويؤكد ويفيد بأن الحركات الإصلاحية التي لا تستند إلى إصلاح القلب صعب جداً الحصول منها على نتيجة" (٣)

(١) د/ سمير محمد رجب: الفكر الأدبي والديني عند النورسي، ١٩٣، ١٩٤. بتصرف.

(٢) سورة النحل: آية رقم (١٢٥)

(٣) د/ سمير رجب: الفكر الأدبي والديني عند سعيد النورسي، ص ١٩٣.

عمومية الإصلاح لجميع الفئات والطبقات:-

بدأ النورسي بتوجيه النصح إلى نفسه أولاً: فيقول "إني أخاطب نفسي في نصائحي لأنني أرى نفسي أحوج الناس إلى النصيحة" (١)

ثم يتدرج النورسي بعد ذلك بدعوته الإصلاحية لجميع فئات الشعب، أطفالاً، وشباباً، وشيوخاً ونساءً، بل وحتى المسجونين، ولم تقتصر دعوته الإصلاحية على طبقة الفقراء دون الأغنياء

أو الموظفين البسطاء دون المسؤولين الكبار، ولكن شملت دعوته جميع الطبقات.

والنورسي في دعوته الإصلاحية يوجه دعوته للفرد باعتباره إنسان دون النظر إلى فئته أو طبقته إلا في أسلوب المخاطبة، مبيناً لهذا الإنسان وظيفته وأنه: "أرسل إلى الدنيا ضيفاً وموظفاً ووهبت له مواهب واستعدادات مهمة جداً، وعلى هذا أسندت إليه وظائف جليلة.

ولكي يقوم الإنسان بأعماله وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة، فقد رُغِبَ ورُهِبَ لإنجاز عمله" (٢)

كما نرى النورسي يستخدم في دعوته الإصلاحية الأدوات التي تناسب كل فئة أو طبقة، وإن كان الأغلب استخدامه لأدوات يقوم بترويضها وصياغتها ليجعلها تناسب جميع الفئات والطبقات .

فناه مثلاً: يستخدم عقيدة الآخرة مبيناً ضرورة هذه العقيدة لحياة الإنسانية ولاسيما الاجتماعية وأنها أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومثله وسعادته .

ثم نراه يخاطب الأطفال قائلاً: "إن الأطفال الذين يتمثلون نصف البشرية لا يمكنهم أن يتحملوا تلك الحالات التي تبدوا مؤلمة ومفجعة أمامهم من حالات الموت والوفاة إلا

(١) د/ سمير رجب: المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٢.

(٢) بديع الزمان النورسي، الكلمات، ص ٣٧١.

بما يجدونه في أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من الإيمان بالجنة، ذلك الإيمان الذي يفتح باب الأمل المشرق فيحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه..

إن أخي أو صديقي الذي توفي أصبح الآن طيراً من طيور الجنة... فلولا هذا الإيمان بالجنة لهدم الموت الذي يصيب أطفالاً أمثاله تلك القوة المعنوية ولحطم نفسياتهم.

ويستخدم النورسي عقيدة الآخرة كذلك كأداة إصلاحية لترسيخ الإيمان والقيم في نفوس الشيوخ الذين لا يجدون الصبر والسلوان من قرب انطفاء شعلة حياتهم العزيزة عليهم إلا في الإيمان بالآخرة، حيث أن ذلك الإيمان يجعلهم يقابلون اليأس القاتل الأليم الناشئ من الموت والزوال ويصبرون عليه بالأمل في الحياة الآخرة، ولولا هذا الأمل وهذا الإيمان لتحولت حياتهم سجنًا مظلمًا رهيباً.

ويتقل النورسي بعقيدة الآخرة كأداة إصلاحية لغرس حقائق القرآن والفضائل في نفوس الشباب فيقول: "إن الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدي فورة مشاعرهم، ولا يمنهم من تجاوز الحدود إلى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش أنفسهم ونزواتها، ولا يؤمن السير الأفضل في علاقاتهم الاجتماعية إلا الخوف من نار جهنم، ولولا هذا الخوف لحولوا الدنيا إلى جحيم، وحولوا الحياة الإنسانية السامية إلى حياة حيوانية سافلة.

ويتقل النورسي بعقيدة الآخرة كأداة إصلاحية إلى الحياة العائلية، والتي هي مركز تجمع الحياة الدنيوية ولولبها، وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة، وملجأها الأمين، وأن بيت كل فرد هو عالمه ودينياه الخاصة، فلا سعادة لروح العائلة إلا بالاحترام والإشارة والوفاء والرأفة والرحمة والتضحية، ولا يحصل ذلك إلا بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية ورققة دائمة ومعية سرمدية في زمن لا نهاية له" (١).

ولقد شملت دعوته الإصلاحية حتى المسجونين، فما من سجن إلا وحوله إلى مدرسة إصلاحية طيبة مباركة يشع فيها النور ويفوح منها أريج القرآن، فما هو يخاطبهم قائلاً:

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص٤٠، ١٠٥.

" إخوتي المسجونين الأجراء الجدد والقدامى: - لقد بت على قناعة تامة من أن العناية الإلهية هي التي ألفت بنا إلى هنا، وذلك لأجلكم أنتم، لبث السلوان والعزاء الذي تحمله رسائل النور إليكم، وانتشال حياتكم المليئة بالأحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوى.. وإنقاذ آخرتكم من أن تكون كدنياكم حزينة باكية.

فما دامت الحقيقة هي هذه.. فعليكم أن تكونوا إخوة متحايين كطلاب النور"^(١).

ولقد كان النورسي يقوم بإرسال الرسائل نيابة عنه لتقوم بدورها الإصلاحية، فمثلاً: رسالة " الثمرة " و " مرشد الشباب " وهي رسائل إصلاحية للشباب ليשמروا عن ساعد الجد ويدافعوا عن أنفسهم ودينهم، وأن يصونوا أنفسهم بالقرآن لكي يكون شباباً مسلماً رائداً حقاً.

أما رسالة الشيوخ: ففيها يبين أن تجلي الرحمة الإلهية يحول الحزن المؤلم في الشيخوخة إلى فرح مشرق، وأن الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر يمنح الأُنس والسلوان.. الخ.

ثم يلي ذلك رسالة المرضى: وفيها يبين أن المرض مرشد ناصح ويعرفك بأسماء الله الحسنی وأن المرض يكفر الذنوب ويفجر ينابيع الدعاء.

ثم رسالة الحجاب: حيث بعث بها إلى النساء والفتيات لحثهن على ارتداء الحجاب والتزامهن العفاف، ثم رسالة " الطبيعة " وفيها يرد على الماديين والملحدین.

وخلاصة القول أنه لم يترك باباً من أبواب الإصلاح، إلا وطرقه وفتحته، ولا عائقاً إلا وأزاله، كل هذا لترسيخ الإيمان ونشر حقائق القرآن حتى يعيش المسلمون في جو من الحرية، ويزداد الشعور الديني لدى الأفراد للوصول للمعرفة الحقة الخالصة من الشوائب.

" لقد سخر النورسي كل إمكاناته وإمكانات تلاميذه الذين أعدهم ورياهم للوصول إلى غرضه

الإصلاحية النبيل، وهو إنقاذ الإيمان في الأمة حتى تعود ثانية إلى بر الأمان تنعم بنور الإسلام.

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص١٧٠، ١٧١. باختصار.

وقد حفزهم (أي طلاب النور) لهذا الهدف السامي، فعرفهم بمهمتهم في الحياة، عملاً بمبدأ "أصلح نفسك وأدع غيرك" حيث قال: "فوظيفة كل طالب ليس هو إنقاذ إيمانه وحده، بل هو مكلف أيضاً بالحفاظ على إيمان غيره، ولا يكون ذلك إلا بالاستمرار الجاد في الخدمة"^(١)

وقال في أحد دفاعاته مبيّناً هدفه الإصلاحية هو وطلاب النور: "نحن جماعة هدفنا وبرنامجنا إنقاذ أنفسنا أولاً، ثم إنقاذ أمتنا من الإعدام الأبدي ومن السجن البرزخي الانفرادي المؤبد ووقاية مواطنينا من حياة الفوضى والسفاهة ومحافظتنا بالحقائق القوية الفولاذية الواردة في رسائل النور من الإلحاد الذي يروم القضاء على حياتنا في الدنيا وفي الآخرة"^(٢).

(١) بديع الزمان النورسي: الملاحق ص ٢٠٢ وانظر د/ محمد فرج الوصيف - النورسي عصره ودعوته /

ص ١٠٤.

(٢) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ٤٢٨.

إصلاح الفرد في إطار الجماعة

على الرغم من اهتمام النورسي بإصلاح عقائد الفرد المسلم وقيمه " من أجل أن ينشأ جيلاً واعياً مشبعاً بحقائق الإيمان، مستقلاً بالحمل الفادح، ثابت الوطأة، قائم الصلب، يملك الدنيا بيده ولا يدعها تلجج إلى قلبه، يرى الاستشهاد في سبيل حقيقة من حقائق الإيمان شرفاً لا يعد له شرف "^(١) إلى هذا الهدف الإصلاحية كان سعى واهتمام النورسي..

ولكن هذا لا يعني اهتمام النورسي بالفرد فقط، أو أن هذا الفرد يدوا كجزيرة منعزلة ولكنه يهتم بالفرد في داخل سياقه الاجتماعي، لأن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يواجه الزحف الإلحادي في تركيا، فقيمة الفرد بها يحمله من القيم المعنوية للجماعة.

ولذا فإن النورسي يركز اهتمامه أيضاً على الجماعة، لأنها هي التي تهب الفرد القوة المعنوية: " فهذا العصر هو عصر الجماعة لا الفرد، لأن الفرد مهما أوتى من قوة ودهاء - بل حتى لو كان في قوة مائة داهية - ولم يكن معبراً عن الشخصية المعنوية لها (أي للجماعة) فإنه مغلوب أمام الشخصية المعنوية المناوئة له "^(٢)

ويدعو النورسي إلى ضرورة اندماج الفرد داخل الشخصية المعنوية للجماعة، وينبغي أن يحمى فرديته داخلها " فهذا الزمان - لأهل الحقيقة - زمان الجماعة وليس زمان الشخصية الفردية وإظهار الأنانية، فالشخص المعنوي الناشيء من الجماعة ينفذ حكمه ويصمد تجاه الأعاصير فلاجل الحصول على حوض عظيم ينبغي للفرد إلغاء شخصيته وأنانيته "^(٣)

ويؤكد النورسي على أنه كفرد رغم كل إمكانياته لم يكن يستطيع مواجهة الإلحاد بمفرده لأن طاقته ضعيفة، فلو لم يكن له تلاميذ ينسخون رسائله ويأخذونها من السجن لما أمكن لرسائل النور أن تنتشر في تركيا، فيقول النورسي: " هذا الزمان زمان الجماعة، فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة، وينبغي ألا تؤخذ بنظر

(١) أديب الدباغ - هوامش على فكر النورسي، ص ١٣، أعمال مؤتمر ١٩٩٢، سوزلر، القاهرة.

(٢) بدیع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٦٧.

(٣) بدیع الزمان النورسي: الملاحق، ص ١٦٣.

الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية"^(١)

ولهذا فقد سعى النورسي إلى تدوير الفرد في إطار الجماعة، وقد أثمر سعيه هذا بتكوين جماعة موحدة، والتفاف طلاب حوله، واتسعت خدمته من يوم إلى آخر، إلى أن صار أتباعه يفوقون الحصر، وكان طريقه لتحقيق ذلك هو إرساء قيم الإخلاص وسحق الأنانية فيقول:

" أن طلاب رسائل النور الحقيقيين قد أذابوا أنانيتهم الشبيهة بقطع الثلج في الشخص المعنوي والحوض المشترك للجماعة، ولا يزعزعون بإذن الله في غمرة العواصف والأعاصير"^(٢)

ويؤكد النورسي على ضرورة اتحاد الجماعة التي تدين بالإسلام ويسميا أهل الحق، لأن عصرنا هذا هو عصر الجماعة، فالفرد لا يستطيع الثبات أمام هجوم الضلال، لأن هذا الهجوم ينشأ من فكر جماعي، وسيقهر الفرد أمام هجوم الضلال لأنه هجوم جماعي " كما أن الفرد الواحد كثيراً ما يتهم بالتناقض بينما لا ينطبق هذا على الجماعة"^(٣)

ويضع النورسي أسماً لوحدة الجماعة الإسلامية في العالم الإسلامي ككل، وبشتى مذاهبه ويسعى إلى درء الاختلاف بين المذاهب الإسلامية، وهذه الأسس كالتالي:

١- العمل الإيجابي البناء، وهو بمقتضى محبته لمسلكه من دون أن يرد لتفكيره عداء الآخرين.

٢- على المرء أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوه واتفاق فيما بينهم فيتفق معها.

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٠.

(٢) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ٣٧٦.

(٣) د/ سمير رجب: الفكر الادبي والديني عند النورسي، ص ٢٢٦، ٢٢٧. نقلاً من كليات رسائل النور للنورسي.

٣- العلم أن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية.

٤- ترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسية التافهة.

٥- ترك ما يتصور خطأ أنه من العزة والكرامة.

٦- اتخاذ دليل الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك يستطيع القول بأن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل من دون أن يتدخل في مسالك الآخرين.

٧- ترك غرور النفس وحفظها^(١).

والحق أن هذه الأسس هي أحوج ما نحتاج إليه الآن لتحقيق الوحدة بين المسلمين والعالم بشتى فرقها ومللها ونحلها، ومن أجل تحقيق حلم المسلمين في لم الشمل وإنهاء حالة التشرذم.

رحم الله النورسي، ذلك المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والإصلاح....

وخلاصة القول:-

أننا أردنا أن نلفت (من خلال لمحة سريعة في البحث) النظر إلى آراء النورسي الإصلاحية والتي يتضح فيها أنه كان واقعياً وعملياً، ومفكراً لماحاً وذواقاً، حين جعل من أولى اهتماماته ومركزاته، إصلاح الفرد والجماعة، وهو ما يؤكد التوافق في الفكر والرؤى بين الإمام محمد عبده والنورسي، وابتعاد هذا التوافق مع جمال الدين الأفغاني.

وتتضح رؤية النورسي الراضية للإصلاح الفوقي، الذي يبدأ من السلطة، لما سيتولد عنه مشاكل لا حصر لها، وخاصة إذا كانت الآراء الإصلاحية لا تتوافق مع أهداف ورؤى

(١) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

وأطباع الساسة وتتعارض معهم، وإن كان هذا لا يتنافى مع إسداء النورسي بالنصيحة للحكومة من أجل الإصلاح كما حدث حين ذهب إلى السلطان عبد الحميد لإنشاء جامعة الزهراء لنشر العلم وإزالة الجهل، وكما حدث حين ذهب إلى أنقرة وخطب في البرلمان ناصحاً أعضائه بالمواظبة على الصلاة.

ويسير النورسي في منهجه الإصلاحية على المنهج الإسلامي المعتدل الصحيح القائم على الإقناع والموعظة بالتي هي أحسن. ويرفض النورسي منهج الحركات الإصلاحية الثورية (التخريبية) لأن ذلك يضر بالأبرياء من النساء والأطفال وغيرهم، ويؤيد الحركة الإصلاحية المعنوية التي تقوم على إرشاد أفراد المجتمع وتنويرهم.

كما نلقت في هذا البحث بلمحة، إلى المرتكزات والأسس التي ينطلق النورسي منها في حركته الإصلاحية، والتي يبدأها بإصلاح القلب، لقناعته أن التخريب قد بدأ في القلب، ثم يشرع إلى عمومية الإصلاح لجميع الفئات والطبقات من شيوخ ورجال ونساء وأطفال، وحتى المسجونين.

وعلى الرغم من اهتمام النورسي بإصلاح الفرد، فإن هذا لا يعني اهتمامه بالفرد فقط وكأنه جزيرة منعزلة، ولكنه يتم بالفرد في داخل سياقه الجماعي.

ولعل الأهم، هو وضعه أسس لوحدة الجماعة الإسلامية والإنسانية في العالم، وهذه الأسس هي أحوج ما نحتاج إليه الآن لإرساء المحبة والأخوة والألفة، وإنهاء حالة التشرذم والصراعات.

المبحث الثاني

موقف النورسي من الفلسفة

ويشمل على ما يلي:-

موقف النورسي من التفكير الفلسفي.

القرآن والفلسفة.

الموازنة بين ثمرات القرآن والفلسفة.

أ- المعرفة.

ب- الكون.

ج- الإنسان "الفرد" و"المجتمع".

موقف النورسي من الفلاسفة.

أ- فلاسفة الإسلام.

ب- الفلاسفة غير الماديين (الذين يسميهم الإشراقيون).

ج- الفلاسفة الماديون.

سعيد القديم الفيلسوف.

النورسي الحكيم *

موقف النورسي من الفلسفة

" مما لا شك فيه أن تنوع الفلسفات واختلاف مشاربيها وتباين مراميها يعكس وطأة التيه الخائقة التي ظل العقل البشري يضرب فيها بحثاً عن معالم طريق يسكن إليه ويقر فيه قراره..

فلقد لبثت التسديدات التأميلية تقلب النظر في هذا الاتجاه وفي ذلك نشداناً للحقيقة وطلباً للاستتارة التي تثوب بها السكينة إلى قلب المخلوق"^(١)

" ولكن على الرغم من تعدد مشارب الفلسفة ومذاهبها فإنها اعتبرت دائماً وفي سائر العصور ميدان الشمولية المعرفية النظرية.

ورغم أن الفلسفة مراس فكري، وممارسة ثقافة الحيرة، وإدارة فعل التساؤل، إلا أنه من شأنها تحريك الذهن بما يُصدم من التساؤلات أن يزج بالعقل في غمار البحث والاستكشاف.

بيد أن الفلسفة ظلت عبر العصور - لاسيما العصر الراهن - تناهض المسلمات حتى في مضمار العلم الرياضي الدقيق وتسعى إلى تجاوزها •

ولذلك وبسبب خاصيتها الاستفزازية تلك فقد تناوشت مع الدين، بل وتعارضت معه في بناءات فكرية عديدة، ودخلت معه في علاقة عدااء سافر، خاصة في العصور الوسيطة حين كانت الكنيسة تتعصب لفرض معتقداتها وحجب الرؤية عن أنظار الناس.

على أن الفلسفة الإسلامية استطاعت أن تتكيف مع الدين وأن تتماهى إلى حد ما في التوحيد ومع العصر الحديث تفاقمت زندقة الفلسفة المادية بعد ما رأت من غلبة واضحة للكشوف العلمية والرياضية، وقلتها للأطر والفرضيات والاستشرافات التي ظلت تنادي بها التعاليم الإنجيلية الأمر الذي جعل الفلسفة الوضعية تنحو منحى الثورة في رفضها للمعطي الديني، وفي تعاملها مع المقدس وفي بناء أخلاقياتها على مسطرة اللادين، وسنت خلقية غايتها استنقاذ الإنسان من الهوة العميقة التي ألقته به فيها المعرفة الكهنوتية (المغلقة).

(١) د. عشراي سليمان: التورسي في رحاب القرآن، ص ٢٢٩، ٢٣٠، بتصرف.

ولكن خطأ الفلسفة المادية أنها وجهت نغمتها على الروحيات، وهدمت المرتكزات الروحية التي ظلت الديانة المسيحية تسعى إلى أن تحافظ بها على تماسك الفرد والجماعة وتسلك بها في طريق السكينة، ثم بعد ذلك خطت خطوة مناهضة للمسيلمات الكنسية عندما ألهت الإنسان وجعلت السيادة الكونية له، وأناطت به المستقبل والمصير..

والواقع أن ثورة الفلسفة على الرب - وسبحان الله عما يقولون - قد وقعت في شرك الروح الكتابية ذاتها ولم تخرج عنها، وذلك حين ناظرت بين الرب الممات على يدها (المسيح) وبين الإنسان المؤله علي يدها أيضاً (المسيح أيضاً) ذات الوازع العرفي، ذلك لأن الإنسان المؤله لديها ليس هو الإنسان مطلقاً، ولكنه إنسان الاستعمار الفاتح الإمبراطوري^(١)

ولم تكن الساحة التركية إبان عصر النورسي في معزل عن طاعون الفلسفة الاستبدادية الإلحادية فساء تركيا كانت تحمل سحباً بيضاء يظن من يراها أنها تحمل ماءً، وهي في الحقيقة تحمل سماً ورياح زندقة تسوقها، وأرضها كانت مسرحاً لمختلف التيارات (الوافدة) الفلسفية والسياسية التي ظهرت في الغرب، من نظريات مادية وتيارات إلحادية وفلسفات طبيعية، وقد كان لكل ذلك تأثير سلبي على كثير من المثقفين الأتراك، الذين تبنا تلك النظريات.. وبدأوا ينشرون الإلحاد والاستبداد ويدافعون عنه، مستندين إلى بعض من تلك النظريات الفلسفية الإلحادية^(٢)

"وأهل الضلالة والإلحاد يستندون دائماً على الأسس الفاسدة للفلسفة الطبيعية المادية فيوهمون بعض المسلمين بأن لهم أسساً علمية يركنون إليها لصد حقائق الإسلام.

لذا ترى الرسائل تشن هجوماً عنيفاً وباستمرار على تلك الأفكار والكلمات والأسس الفاسدة التي يستند عليها الماديون الطبيعيون " لبيان أن ما سلكه أولئك الملاحدة الماديون من طرق ومناهج لا تعدوا أن تكون محض خرافة خرقاء "

ولا تكتفي الرسائل بإيراد بضعة أدلة، وإنما تسرد الدلائل تلو الدلائل وتعقبها بأمثلة

(١) د/ عشراتي سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص٢٤٦، ٢٤٧. بتصرف.

(٢) د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص٢٤٦، سوزلر، القاهرة.

غزيرة ومتنوعة حتى تبين بوضوح أن الطريق التي يسلكها المنكرون من الماديين الطبيعيين هي بعيدة كل البعد عن المسلمات المنطقية والعقلية، بل تمجها العقول السليمة وأنها محض خرافة، وسلوكها في ذلك هو بخطوات منطقية عقلية، فمثلاً: جاء في مقدمة رسالة "الطبيعة": أيها الإنسان.. أعلم أن هناك كلمات رهيبة تفوح منها رائحة الكفر التنتة تخرج من أفواه الناس وتردها السنة أهل الإيمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنين ثلاثة منها هي الغاية في الخطورة:

أولها: قولهم عن الشيء: "أوجدته الأسباب" أي أن الأسباب هي التي توجد الشيء المعين.

ثانيها: قولهم عن الشيء: "تشكل بنفسه" أي أن الشيء يتشكل من تلقاء نفسه ويوجد نفسه بنفسه وينتهي إلى صورته التي انتهى إليها كما هي.

ثالثها: قولهم عن الشيء: "اقتضته الطبيعة" أي أن الشيء طبيعي والطبيعية هي التي أوجدته واقتضته.

ثم تذكر الرسالة تلك المحالات، وتوضحها بأمثلة علمية سلسلة متنوعة، حتى لا تذر غباراً للشبهة والوسوسة في القلب والعقل، وهكذا يلمس القارئ الأسلوب العلمي المنطقي الرصين

والمحاورة الهادئة الرزينة^(١).

ويلمس القارئ لرسائل النور أن الهجوم على الفلسفة في "رسائل النور" أخذ حيزاً كبيراً بحيث لا تكاد تخلو معظم الرسائل من وقوف مع الفلاسفة، دأ على آرائهم أو مناقشة لأدلتهم أو مقارنة بين نظرتهم إلى الله والإنسان والكون.. ونظرة القرآن الكريم، وفي كثير من الأحيان يكتسي أسلوب الرد قوة بقدر ما نلمسها في سعة التحليل ومثانة الاستدلال، نجدها أيضاً في قساوة النعوت التي يستعملها النورسي لوصف الفلاسفة وتسفيه آرائهم ومناهجهم، فهو في أحسن الأحوال يصفهم بأنهم "انحدرت عقولهم إلى

(١) إحسان قاسم: النورسي حياته وآثاره، ص ٢١٢، ٢١٣. وأنظر اللمعات، اللمعة الثالثة عشر.

عيونهم^(١)

فلم يستطيعوا تجاوز حدود الحس ويصف فلسفتهم بأنها " طاعون معنوي حيث تسبب في سريان حمى مهلكة في البشرية عرضها للغضب الإلهي " ^(٢) وهي " تلوث " ^(٣) وتجب عن الإنسان الإدراك السليم للحقائق إذ " تكل العقل وتعمي البصيرة " ^(٤) وهي " غول يريد أن يلتهم عقائد المسلمين " ^(٥) وهي " مصدر الجبروت، ووراء ظهور العقائد الطغيانية.. والانزلاق والتردي في هوة البغي " ^(٦) و " أوحال الطبيعة " وهي سبب في نفخ عروق الطغاة " وتهيجهم والأناية " ^(٧) حتى ساقتهم إلى دعوى الألوهية " ^(٨)

وهي في النهاية " فلسفة مبنية على أساس العبث في الوجود " ^(٩) لأنها " فلسفة عاصية للدين " ^(١٠) و " تافهة وصغيرة " ^(١١) ولأنها " وسيلة في تخريب الوجود الإسلامي وحل رقبة الإسلام على الأعناق " ^(١٢) ..، إلى غير هذا من الأوصاف والنعوت..

إن هذه الصورة التي نصادفها في " رسائل النور " للفلسفة تجعلنا نتساءل عن موقف النورسي من التفكير الفلسفي .

فهل هو يرفض كل تفكير فلسفي لأنه نتاج العقل بحجة الإكتفاء بالنقل كما هو شأن

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٠١.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧٧.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٧٧.

(٥) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ٢٦٧.

(٦) بديع الزمان النورسي: الكلمات.

(٧) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٤٢.

(٨) المرجع السابق، ص ٦٤٣.

(٩) المرجع السابق، ص ٦٥٥.

(١٠) المرجع السابق، ص ٦٤٣.

(١١) المرجع السابق، ص ٤٠١.

(١٢) المرجع السابق، ص ٥٦٥.

الرافضيين غالباً؟

أم أن هناك نوعاً معيناً من ضروب التفكير الفلسفي هو الذي يرفضه النورسي، وهو الذي قصده بالهجوم، وندت أصحابه بتلك النعوت والأوصاف؟.. وهذا ما ستحدث عنه فيما يلي.

موقف النورسي من التفكير الفلسفي

" التفكير الفلسفي ليس - كما يتصور البعض - احتكاراً للفلاسفة أو للمشتغلين بالفلسفة إذ أن الإنسان كإنسان يتميز عن غيره من الكائنات بعقل وهبه الله إياه ليفكر به، والتفلسف ليس شيئاً آخر غير استخدام هذا العقل، فالحيوان يرى ويسمع بل ويتذكر ولكنه لا يستخدم هذه القوى إلا في حاجاته الوقتية.

ومن الملاحظ أن الكثيرين يستخدمون في تعبيراتهم العامة كلمة (فلسفة) للتعبير عن اتجاهاتهم العامة فيقال مثلاً: فلسفتي في الحياة، أو فلسفتي في عملي هي كذا وكذا.. ويقنع الكثيرون بهذا الاستخدام السطحي للفظ الفلسفة، إما تجملاً في الحديث، أو تظاهراً بالثقافة أمام الغير عن طريق استخدام كلمات مثل كلمة فلسفة...

وعلى هذا فإنه لا يوجد - في الغالب - إنسان لا يتفلسف، أو على الأقل فإن لكل منا في حياته لحظات يكون فيها فليسوفاً ينظر ويتأمل ويحاول الوصول إلى أعماق الأمور، وليست الفلسفة إلا نتاجاً للنظرة الفاحصة للعقل البشري إلى هذا الوجود.

وحقيقة العقل: أنه قبس من نور الله، أو كما يقول الإمام الغزالي " نموذج من نور الله " فكل عاقل من عامتنا إلى خاصتنا يتفلسف.. بدرجات متفاوتة، وإن كان البعض منا لا يريد أن يسلم بأنه يتفلسف، فالفلسفة في واقع الأمر ليست بالشيء الدخيل على الإنسان، فحياته حلقات متصلة من الفكر والتأمل.

وكهذا نجد أن الفلسفة نبتاً طبيعياً في المجتمع وظاهرة إنسانية ملازمة لوجود الإنسان، ولن تزول هذه الظاهرة من الحياة طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، فالفلسفة بالنسبة للإنسان أمر لا مفر منه...

ولكن عندما طغى على العقل التفكير المادي وأصبح للعلم نفوذاً لا يدانيه نفوذ، وفي الوقت نفسه خف وزن الحديث عن الروح، لم تسلم الفلسفة من الهجوم عليها من جبهات عديدة من حيث أنها في نهاية الأمر نبره روح أو نبضة عقل يحاول التخفيف من أثقال المادة والنظر إلى الأمور بعين مجردة.

وهكذا أصبحت الفلسفة (التي هي نتاج العقل والفكر المادي) تثير شعوراً غريباً

بالنفور وشيء مبهم وغامض لا سبيل إلى فهمه، ولا جدوى من الاشتغال به، وقدياً قال أفلاطون: "إن الجمهور ميال لاعتقاد أن الفلسفة عديمة النفع" (١).

والنورسي كإنسان لا يرفض التفكير الفلسفي، ولكن كمسلم ورع يصوغ حياته وفق عقيدة سليمة صاغها رب العالمين، يرفض التفكير الفلسفي المادي الإلحادي الذي يعادي إنسانية الإنسان ويصوغ حياته في إطار "أنا" فيسقط في مهاوي أنا ويجس نفسه وعقله وروحه داخل سجن الكون.

فالنورسي يميز بين التفكير الفلسفي المقبول، والتفكير الفلسفي المرفوض، وهذا التمييز وضحه بشكل مباشر من خلال جملة من النصوص وردت في رسائله، وأوضح فيها أن عداؤه ورفضه إنما هو لنوع من أنواع هذا التفكير وهو (الفلسفة المادية) فيقول: "أما الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية فهي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية والبشرية وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقى الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، لذا فرسائل النور لا تتصدى لهذا القسم من الفلسفة.

وأما القسم الثاني من الفلسفة: وهي التي أصبحت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الأسن للطبيعة، فإنه ينتج كذلك السفاهة واللهو والغفلة والضلالة ويعارض الحقائق المعجزة للقرآن الكريم بخوارقه التي هي كالسحر •

لذا فإن (رسائل النور) تتصدى لهذا القسم من الفلسفة في أغلـ أجزائها بنصبها موازين دقيقة وسوقها البراهين الدامغة فتصفعها بصفعاتها القوية في حير أنها لا تلتفت إلى القسم النافع منها" (٢).

إذا فالفلسفة النافعة للبشرية لا يهاجمها النورسي، ولكنه يهاجم ويتقد الفلسفات المادية

(١) د/ محمود حدي زقزوق: (وزير الأوقاف المصري) مقدمه في الفلسفة الإسلامية، ص ٧-١٠ طبعة

المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٣. بتصرف

(٢) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٢٨٦.

المعاصرة وإن كانت الفلسفات القديمة لم تسلم كذلك من هذا الهجوم، حيث يرى أن هذه الفلسفات خیرها قليل وشرها كثير ولعله بذلك يسير في ركاب السلف الذين انتقدوا الفلسفة اليونانية ونقدوا المنطق الأرسطي كألة لهذه الفلسفة فيقول "إن الحكمة القديمة (الفلسفة القديمة) خیرها قليل وخرافاتا كثيرة حتى نرى السلف - إلى حد ما عنها - حيث الأذهان كانت غير مستعدة، والأفكار مقيدة والجهل مستولياً على العوام" (١)

وبالتالي فالنورسي يرى أن الفلسفة اليونانية خیرها قليل، وذلك لأن هذه الفلسفة كانت نتاج فكر مليء بالأساطير والخرافات والنزعات الوثنية.

ويمكن تفسير موقف النورسي الراض للتحكير الفلسفي المادي الإلحادي، حتى لا يكون هذا التفكير (والذي مصدره العقل) آلة لتخبط صاحبه في الضلالة والكفر والتعذيب إذ يقول: "إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح آلة تعذيب، ووسيلة إزعاج بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة" (٢).

كما أنه يرى أن التفكير المتسق مع الشرع وسننه يجلب لصاحبه السعادة ويصعد به للرقى المعرفي فيقول: "وشاهدت السنن كالجبال المتدلية من السماء، من أستمسك ولو بجزئي استصعد واستعد ورأيت من خالفها واعتمد على العقل (المادي) الدائر بين الناس كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمق فرعون بـ (ياها مان ابن لي صرحاً)" (٣).

ومن ناحية أخرى فإن النورسي يرفض التفكير الفلسفي المادي لأنه يشير القلق والارتياب والحيرة والدين وحده هو الكفيل بالإجابة عن كل سؤال يقذف به العقل..

وهذا ما ستحدث عنه فيما يلي تحت عنوان.... "القرآن.. والفلسفة"

(١) بديع الزمان النورسي: صقيل الإسلام، ص ٤١.

(٢) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ١٩٠.

(٣) بديع الزمان النورسي: المتنوى العربي، ترجمة إحسان قاسم، ص ١٦٥، سوزلر، القاهرة

القرآن ٠٠ والفلسفة.

إن الاختلاف بين جوهر الفلسفة ومراميتها، وبين روح القرآن ومقاصده يبتدي في طبيعة الصلة بين المصدرين وبين الوجود ٠

ويبتدي أيضاً في مستوى الحوار الذي يعقده كل منهما مع الكون وعناصره " فالقرآن يبحث عن معاني الكائنات ودلالاتها، أما الفلسفة فإنها تبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها ولا تعرف أن الموجودات كلمات تدل على معان، فإن شئت أن ترى فرق حكمة الفلسفة وحكمة القرآن فراجع ما في بيان آية { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا }^(١)

والفلسفة تثير السؤال بشكل دائم، وهذا يرسخ داخل الإنسان قلقاً مستمراً خاصة عند عدم الحصول على الإجابة على هذا السؤال، مما يصل بهذا القلق إلى حالة الاكتئاب، والدين وحده هو القادر على أن يطفى هذا القلق ويهب الإنسان نوعاً من الطمأنينة والسكينة، فيقول النورسي: " إن القرآن وحده هو الكفيل بالإجابة عن الأسئلة التي تسألها الفلسفة، فالكائنات: ومن أين؟ وبأمر من تأتون؟ من سلطانكم ووليكم؟ مما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟

ولهذا تُذكر الكائنات في القرآن ذكر استطرادي لبيان طريق الاستدلال على الصانع الجليل"^(٢) ومن الخاصيات التوصيلية الأخرى التي يسجلها النورسي للقرآن العظيم مباشرته للمسلمات والبدهييات التي اعتادها الحس ودُرجت عليها مدارك الإنسان، إذا يستثيرها ويستحضرها ولكن بمقصد إعتباري تحسيسى، فإحالات القرآن المتواترة إلى الفضاء السحيق وما يعمره من سماوات وأرضين مثلاً إنما تدأب على استدعاء المشاهد الكوني الذي يكتنف المخلوقات، والذي لا تنكره الخليقة لما يربطها به من ألفه تشهد الأذهان والبصائر إلى ما يخفيه هذا المشهد من حقائق لا تدركها الجوارح الحسية..

(١) د/ عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٢٩، انظر النص للنورسي في المشنوي العربي، ص ٧٦.

(٢) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٢٩.

من هنا أربطت فلسفة القرآن أسسها التأميلية التعبدية الموصولة بالفكر وبالتفكير بالخالق من خلال لفت الأبصار إلى مرافق هذا الكون الخارق، الذي هو من إبداعه وإيجاده عز وجل فيقول النورسي: "إن أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلّماته، بل بديياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب، ففي الأساس فساد أي فساد، فلهذا السر توجه الآيات أنظار البشر إلى العاديات المألوفة من خوارق العادات في عين العاديات" (١)

أما الفلسفة فهي غير ذلك، حيث تصطدم بتأملاتها بما يسفها ويفند مسلّماتها ويهز يقينها نتيجة فشلها في الوفاء بالتزاماتها المعرفية، ورهاناتها الكشفية إزاء حيرة الإنسان وضياعه وجهله بعقل هذا الوجود وبمقاصده •

ومما لاشك فيه أن تنوع الفلسفات واختلاف مشاربها وتباين مراميها يعكس وطأة التيه الخائفة التي ظل العقل البشري يضرب فيها وكان سبباً في ضياع الحقيقة بين الاجتهادات والتجديدات النظرية، إذ تشعبت الفرضيات والسبل، ولم يتهيأ لها في أي صدد طرقتها، هداية أو يقين • ولعل ذلك ما أشار إليه الفيلسوف الأسباني المعاصر "أورتيجا إي جامست" حيث يقول: "لقد أساء إلى الفلسفة حتى الآن، أنها نظرة وحيدة مطلقة، ولهذا رأينا اختلاف المذاهب وتنازعها وضرب بعضها ببعض على طول العصور" (٢)

ويبين النورسي أن نظرة القرآن الكونية تبين نظرة الفلسفة الغربية، إذ أن لكل منهما رؤيته الخاصة ومنهاجه الذي يبرز به حقيقة هذا الوجود.. يقول النورسي "الفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جهودتها (الدنيا) وكدورتها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعية، وأما القرآن فينعش الدنيا كالعهن بآياته، ويشففها ببياناته ويذيبها بنيرانه، ويمزق أبديتها الموهومة بنعياته ويفرق الغفلة المولدة للطبيعة برعداته، فحقيقة الدنيا المتزلزلة تقرأ بلسان حالها المذكورة آية { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }" (٣)، (٤)

(١) د/ عشراي سليمان: المرجع السابق، ص ٢٢٨، انظر النص للنورسي في المنشوي العربي، ص ٣٢٤.

(٢) / عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٣٠، ٢٢٩.

(٣) سورة الأعراف: آية رقم (٢٠٤)

(٤) د/ عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٣٢.

كذلك استخدم النورسي مفهومي الاسمية والحرفية ليشخص من خلالها الفارق الأساس بين المنظورين القرآني والفلسفي، موازياً بين الإفادة التي يحصل عليها العقل من وراء تعاطيه الفلسفة والعلم القرآني وبين الدلالة التي يحيل إليها كل من الحرف والاسم .

"فالفلسفة عدلت عن طريق الحقيقة، فاستخدمت الموجودات لأنفسها بالمعنى "الأسمي" .

وأما القرآن فبالحق أنزل وبالحق نزل وإلى الحقيقة يذهب فيستخدم الموجودات بالمعنى "الحرفي" لا لأنفسها بل لخالقها" (١)

و " الفلسفة المادية تقوم الأشياء والموجودات بذاتها ولذاتها.. على عكس الرؤية القرآنية التي تقرر الأشياء بربطها لخالقها" (٢)

فرؤية القرآن إحالية تصل الوقائع ببارئها.. بينما الرؤية الفلسفية رؤية عينية ذاتية مصممة لا يتعدى فيها الدال مدلوله الحسي الشاخص، فهي بمثابة الاسم يحمل فحواء في بيته فحسب.. ومن هنا كان النظر القرآني للأشياء نظراً إيمانياً يلحم بين الظواهر وبين الله خالقها ومدبرها فيما كان النظر الفلسفي نظراً شياً حسيماً لا يرسو بمصادراته العقلية القاصرة إلا على منطق جحدودي، من أبرز محدداته الاصطلاحية: المجهول واللاتهائي والمطلق، وهو ما يعكس ضيعة الإنسان وعجزه" (٣)

ومن هنا أيضاً جاء الخلل في منهج ومنطق الفلاسفة وفي ما يكتبون وهو ما لاحظته النورسي بقوله: " ترى كتب الفلاسفة أحكم فيما يعود إلى الكائنات في أنفسنا، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت، فيما يعود إليها بالنسبة إلى صانعها.. وكلام المتكلمين مثلاً لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية إلا بالمعنى الحرفي التبعي والاستطرادي والاستدلال فقط" (٤).

لقد عزف النورسي عن إتباع نهج أهل الفكر الفلسفي المادي، ورفض أن يجري في

(١) بديع الزمان النورسي: المثوى، ص ٦٧٠.

(٢) بديع الزمان النورسي: المثوى، ص ٧٢ وانظر د/ عشراقي سليمان: المرجع السابق، ص ٢٣٤

(٣) بديع الزمان النورسي: المثوى، ص ٧٧. وانظر د/ عشراقي سليمان: المرجع السابق، ص ٢٣٤

(٤) بديع الزمان النورسي: المثوى، ص ٤٠٤. وانظر د/ عشراقي سليمان: المرجع السابق، ص ٢٣٥

مضمار أصحاب الفضلكات الحجاجية التي تهتم بأعراف المنطلق الصوري والمراسيم الجدالية المدرسية أكثر من اهتمامها بالجوهر الترشيدي التنويري الذي يخدم الإنسانية، ويجلب لها السعادة الدائمة بل لقد تأبى النورسي حتى تطعيم تقريراته بما يخرج عن نطاق عقل القرآن ومنطقه من متواضعات أهل الفكر وحكمتهم" (١).

ويصل النورسي إلى نتيجة مؤداها، أن مكانه القرآن أعلى بكثير من مكانة الفلسفة فيقول: "إن ثروة القرآن الطائفة وغناها الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة، وإفلاس الفلسفة وفقرها المدقع في دروس العبرة والعلم بمعرفة الصانع الجليل" (٢) ولهذا "فإن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها" (٣)

وبالتالي فالعلم المستفاد من القرآن المتعلق بالكائنات أعلى وأغلى بما لا يجد من العلم المستفاد من فنون الفلسفة" (٤)

بل إن "مفتاح دلائل إعجاز الآيات وكشاف أسرار البلاغة هو في معدن البلاغة العربية وليس في مصنع الفلسفة اليونانية" (٥)

وفي الوقت الذي يعقد فيه النورسي الموازنات بين القرآن والفلسفة المادية والتي تعد وجهاً من وجوه النقد للمنهج المادي، وذلك بجعله في مقابل القرآن من حيث طريقة تناوله للحقائق حول الإنسان والكون، نراه يركز في الوقت ذاته على بيان ثمرات كل من المسلكين (القرآن والفلسفة) على حياة الإنسان وعلاقته بمجتمعه والكون الذي يعيش فيه وهذا ما سنتحدث عنه فيما يلي:

(١) د/ عشراي سليمان: المرجع السابق، ص ٢٤٨-٢٤٩

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ١٥١ وفي نفس المصدر، الموازنة بين حكمة القرآن والفلسفة، ص ١٤٠، ١٥١

(٣) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٧٠.

(٤) بديع الزمان النورسي: المتنوي العربي، ص ٤٠٧.

(٥) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٩٤.

الموازنة بين ثمرات القرآن والفلسفة

سمى النورسي هذه المقارنة (موازنة) لكي يذكرنا بالمبدأ الذي انتهجه وسار عليه واتخذة أداة ووسيلة في نقده للفلاسفة، وهو أن يعرض آرائهم على موازين العقل، فهو هنا يتخذ الميزان ذاته ليبين أي الطرفين أقرب إلى ما يقتضيه العقل السليم الذي جعله الماديون مقياسهم الأوحد..

وستتبع هذه الموازنات بلمحة سريعة لبيان (المعرفة) الناتجة عن كلا المسلكين ونظرتها للإنسان في بعدية (الفردية والاجتماعية) وكذا نظرتها إلى الكون والموجودات.

أولاً:- المعرفة: لقد قارن النورسي بين المعرفة الناتجة عن القرآن والمعرفة الناتجة عن الفلسفة المادية، وخلص إلى بعض الفروق " سوف نقوم بعرضها وذكرها في الفصل الرابع المخصص تحت عنوان " (المعرفة في فكر النورسي).

ثانياً:- الكون: سجل النورسي أيضاً الفروق التي لاحظها بين نظرة القرآن الكريم إلى الكون بما فيه من موجودات وبين نظرة الفلسفة المادية فوجد:

١- أن الفلسفة تكتفي بالوقوف عند ظاهر الكون (الموجودات) بل وتنظر إليه باستقلال عند موجد، أي بالمعنى الأسمى (كما ذكرنا من قبل) بينما القرآن يتجاوز ظاهر الكون والموجودات ويربطها بموجدتها فينظر إليها بالمعنى الحرفي.. يقول: "إن القرآن الكريم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية.. وينظر إلى الموجودات.. بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الجليل فيقول: ما أحسن خلقه وما أجمل خلقه.. ليكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات.

أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة فقد غرقت في تزيين حروف الموجودات وظلت مبهورته أمام علاقات بعضها ببعض حتى ضلت عن الحقيقة، فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف الدالة على كاتبها - فقد نظرت إليها بالمعنى الأسمى، أي أن الموجودات قائمة بذاتها^(١).

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص١٤٢، ١٤٣. وانظر: مجموعة الموازنات، ط١، سوزلر، القاهرة،

٢- إن الفلسفة- بوقوفها عند الظاهر- جردت الموجودات من كل حكمة وغاية بينما القرآن يوجه نظر الإنسان إلى ما في الكائنات من حكم ومقاصد " إنه من الدساتير الحكمية للنبوه أن لكل شيء حكماً كثيرة ومنافع شتى، حتى أن للثمرة من الحكم ما بعدد ثمرات الشجرة كما تفهم من الآية الكريمة {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }^(١) فإن كانت هناك نتيجة واحدة- لخلق ذي حياة- متوجهة إلى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود إليه، فإن آلفاً من النتائج تعود إلى خالقه الحكيم، وآلفاً من الحكم تتوجه إلى فاطره الجليل .

أما دستور الفلسفة فهو " أن حكمه كل كائن حي وفائدته متوجهة إلى نفسه أو تعود إلى منافع الإنسان ومصالحة " هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكماً كثيرة أنيطت بها، وتعطي ثمره جزئيه كحبة خردل إلى شجرة ضخمة هائلة فتحول الموجودات إلى عبث لا طائل من ورائه"^(٢)

٣- إن الفلسفة وهي تنظر إلى الموجودات تغفل عن الإعجاز في المخلوقات السوية وتوجه الأنظار إلى المخلوقات المشوهة، بينما القرآن يمزق أمام الإنسان حجاب العادة والألفة ليريه الإعجاز فيها كان يظنه عادياً مألوفاً..

يقول النورسي: " إن القرآن الكريم ببياناته المعجزة القوية النافذة إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة والتي لا تذكر إلا أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرة بديعة، ومعجزاتها العظيمة.

أما حكمة الفلسفة فهي تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية وتسترها تحت عطاء الألفة والعادة تتجاوزها دون اكتراث، بل تتجاهلها دون مبالاة منها... فمثلاً: إن الإنسان السوي الذي هو في أحسن تقويم جامع لمعجزات القدرة الإلهية تنظر إليه حكمة الفلسفة نظرتها إلى شيء عادي مألوف، بينما تنظر إلى ذلك الإنسان المشوه الذي شذ عن كمال الخلقة

(١) سورة الإسراء: آية رقم (٤٤)

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٤٥.

كأن يكون له ثلاثة أرجل أو رأسين.. مثلاً: فشير حوله نظر العبرة والاستغراب" (١)

٤- إن الفلسفة تنظر إلى الدنيا على أنها ثابتة دائمة ولذا تهتم بماهية الموجودات وخواصها دون وظائفها.

بينما القرآن ينظر إلى الدنيا على "أنها عابرة سيالة خداعة سيارة متقلبة لا قرار لها ولا ثبات، لذا يذكر خواص الموجودات وماهيتها... ووظائفها التي تنم عن عبوديتها التي أناطها بها الصانع الجليل.. وتدل على أسماء صانعها الحسنی" (٢)

٥- إن الفلسفة تبني العلاقات بين الموجودات في الكون على أساس "الصراع".

بينما ينه القرآن إلى أن العلاقة بين الموجودات إنما بنيت على أساس التعاون والتسخير بينما "تتعامي أوربا عن ناموس التعاون والتساند المبثوث في أرجاء العوالم والأكوان والموجودات..."

والمتلمذ على فكرة الصراع بين الموجودات من أجل البقاء- لا بد أنه سيرى في الدنيا مأمماً عموماً ويتوهم ضجيج الكائنات وندبات الموت ونياحات اليتامى" (٣)

بينما تلميذ القرآن لا يرى في أعظم الأشياء كالعرش والشمس إلا مخلوقاً عاجزاً مسخراً مأموراً، ويرى في روحه أو أصر شوق ومحبة مع كل الصالحين من أهل السموات والأرض فيدعو لهم من صميم قلبه كما يدعوا لنفسه وأهل بيته، فأنظر إلي التفاوت بين مرؤة التلميذين: ذاك يفر من أخيه لنفسه وهذا يرى كل عباد الله إخوانه" (٤)

ثالثاً: الإنسان: تناول النورسي الإنسان بين الفلسفة والقرآن ببعديّة الفردي والاجتماعي مركزاً على الأثر الذي تخلقه نظرة الفلسفة أو نظرة القرآن في سلوك الفرد أو على العلاقات بين أفراد المجتمع- وسنحاول أن نتلمس الفروق التي لاحظها النورسي في

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ١٥٠.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٥٠٨. بتصرف.

(٣) بديع الزمان النورسي: المثوي، ص ٢٧٠. وانظر: للمعات، ص ١٨٠، ١٨٢ بتصرف.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٧١. بتصرف.

الجانبيين:-

جانب الفرد: لقد كان لاختلاف نظرة الفلسفة إلى الإنسان بالمعنى " الأسمى " ونظرة القرآن إليه بالمعنى " الحرفي " لكل منهما آثار على سلوك الإنسان، حيث أن نظرة الفلسفة قادت الإنسان إلى " التمرد " أما نظرة القرآن فقد قادت إلى " العبودية " فيقول: " فالنبوة تمضي آخذه وجهاً لـ " أنا " ليعرف أنه عبد الله ومطيع لمعبودة، ويفهم أن ماهيته حرفية، أي دال على معنى في غيره.

" أما الفلسفة فتقبل أخذة الوجه الآخر لـ " أنا " بالمعنى الأسمى، أي تقول أن " أنا " يدل على نفسه بنفسه، وتقضي أن معناه في ذاته... وتزعم أن له حقاً في الحياة وأنه مالك حقيقي في دائرة تصرفه " (١)

إن إنسان الفلسفة " متمرّد " لكنه متمرّد مسكين، إذ لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان، ولأجل منفعة حسية يرضى بمتهى الذل والهوان.

أما إنسان القرآن فهو: " عبد " ولكنه " عبد عزيز " لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق. إن إنسان الفلسفة " جبار " لكنه جبار عاجز في ذاته، لأنه يجد مرتكزاً في قلبه يأوي إليه، فغاية ما يصبوا إليه، هو تطمين رغبات النفس وإشباع هواها.

أما إنسان القرآن " لين هين " لكنه لا يتذلل لغير فاطره، فهو صاحب همّة عليا وعزيمة صادقة، " فقير " لكنه مستغن بفاطره، " ضعيف " لكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة " (٢).

وفي تحديد علاقة الإنسان مع الله تعالى: لاحظ النورسي " أن عطاء الفلسفة وروادها ودهاتها أمثال: " أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي " - بناءً على تلك الأسس الفاسدة - بأن الغاية القصوى لكمال الإنسان هي " التشبه بالواجب " أي الخالق جل وعلا - فأطلقوا حكماً فرعونياً طاغياً ومهدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك أمثال: عبدة الأسباب، وعبدة الأصنام، وعبدة الطبيعة، وعبدة النجوم، وذلك

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٤٢. بتصرف.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٨١.

بتهميهم " الأنانية " لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة فسدوا سبيل العبودية إلى الله... بينا أتباع القرآن الذين هم في مسار النبوة، فأنهم بنوا العلاقة على فكرة " التخلق بالأخلاق الإلهية " فقادوا الإنسان إلى العبودية " (١)

جانب العلاقات الاجتماعية:-

لاحظ النورسي أن العلاقات الاجتماعية التي تنشئها الفلسفة، تختلف عن العلاقات الاجتماعية التي ينشئها القرآن، لاختلاف القيم التي يقوم عليها مجتمع الفلسفة، وتلك التي يقوم عليها مجتمع القرآن.

ولقد لخص النورسي عمل كلا المنظومين في إطار حركة " مجتمع الفلسفة " و " مجتمع القرآن " وبين آثار كل منهما:- يقول " إن حكمة الفلسفة ترى " القوة " نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية وتهدف إلى " المنفعة " في كل شيء وتتخذ " الصراع " دستوراً للحياة وتلتزم " بالعنصرية والقومية السلبية " رابطة للجتماعات.

أما ثمراتها: فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج النفس وإثارة الهوى، ومن المعلوم أن شأن القوة هو " الاعتداء " وشأن " المنفعة هو التراحم " إذ لا تفي لحاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن " الصراع " هو " النزاع والجدال " وشأن " العنصرية " هو " الاعتداء " إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى.

ومن هنا تلمس أن اللهات وراء هذه الحكمة (الفلسفة) لا يسلب من جرائها إلا سعادة البشرية.

أما حكمة القرآن الكريم: فهي تقبل " الحق " نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من " القوة " وتجعل " رضي الله سبحانه " ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من " المنفعة " وتتخذ دستور " التعاون " أساساً في الحياة بدلاً من دستور " الصراع " وتلتزم برابطة " الدين " لربط فئات المجتمع بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص٦٤٢.

وتجعل غايتها الحد من تجاوز النفس الأمانة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية تسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية، وإن شأن "الحق" هو "الاتفاق" وشأن "الفضيلة" هو "التساند" وشأن "دستور التعاون" هو "إغاثة كل للآخر" وشأن "الدين" هو "الأخوة والتكاتف" وشأن "إلجام النفس" وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو كمال هو "سعادة الدارين"^(١)

وبهذا يوضح النورسي أن القرآن يبني حياة اجتماعية يسودها التساند والتراحم. بينما الفلسفة بمنطقها المادي والنفعي تبني حياة اجتماعية يسودها الصراع والتراحم.

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ١٤٥، ١٤٦. وأنظر في نفس المرجع، ص ٤٧٢، ٤٧٣ بتصرف.

موقف النورسي من الفلاسفة

بعد أن وقف النورسي على قناعة تامة وراسخة أن حكمة القرآن هي الأقوم والأصوب والأفنع للبشرية وللكون، كما أنها تصحح مسار علاقة الإنسان مع الله، بدأ يبحث في جذور الفلسفة المادية الفاسدة حتى لا يبقى لها قراراً على سطح هذا الكون، ويزيل شبحها الأسود الذي يعكر صفو الحياة، وذلك من خلال هجومه ونقده للفلاسفة...

وستوضح لنا من خلال ما يأتي، أن النورسي حينما يتحدث عن الفلاسفة يبين ثلاثة أصناف:-

- ١- فلاسفة الإسلام.
- ٢- الفلاسفة غير الماديين- الذين يسميهم الإشراقيون.
- ٣- الفلاسفة الماديون.

فنجده يتناول الأوائل " الإسلاميين " تارة بالمدح، كقوله في " ابن سينا ": " ولقد فسر " ابن سينا " " أفلاطون " فلاسفة الإسلام وشيخ الأطباء وأستاذ الفلاسفة، فسر هذه الآية { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }^(١) من زاوية نظر الطب فقط بالأبيات التالية:-

جمعت الطب في بيتين جمعاً وحسن القول في قصر الكلام

فقلل إن أكلت وبعد أكل تجنب والشفاء في الإنهضام

وليس على النفوس أشد حالاً من إدخال الطعام على الطعام^(٢)

ويتناولهم تارة أخرى باللوم والتقريع، ويضم إليهم بعض المتكلمين خصوصاً حينما

(١) سورة الأعراف: آية رقم (٣١)

(٢) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ٢٢٣.

يجدهم قد انساقوا وراء الفلاسفة الماديين بعيداً عن موازين القرآن فيقول: "لم ينل حكماء الإسلام الدهاء أثنال" ابن سينا والفارابي وغيرهم من الذين أفتتنوا بهذه الفلسفة المنهارة الأسس اغتروا بها وببريقها، لم ينالوا هؤلاء إلا أدنى درجة من درجات الإيمان عند المؤمن الاعتيادي، بل لم يمنحهم الإمام الغزالي وهو حجة الإسلام حتى تلك الدرجة...

وكذا أئمة المعتزلة الذين هم من علماء الكلام المتبحرين، فلأنهم افتتنوا بالفلسفة وزيتها وأوثقوا صلتهم بها، وحكموا العقل، لذا لم يظفروا إلا بدرجة المؤمن المبتدع الفاسق^١

وكذلك أبو العلاء المعري الذي هو من مشاهير شعراء المسلمين والمعروف بتشاوره وبأسه وقنوطه، وعمر الخيام المشهور بنحيبه وبكائه ونواحه، لما سلكا طريق الفلسفة وتلذا

بمسلك الهوى والنفس، صفعتهما أكف التحقير والإهانة، فأتهما بالكفر والزندقة والتضليل^(١)

أما الصنف الثاني:- وهم الفلاسفة غير الماديين (الإشراقيون) فإنه يتقدمهم ويسفه أفكارهم ولكنه يضعهم في مكانة أرقى من الفلاسفة الماديين، من ذلك مثلاً: أنه بعد أن ذكر آراء الفلاسفة القدامى في مسألة "أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد" وكيف حاولوا أن يفسروا علاقة "الله" بخلقه من خلال ما أسموه "بالعقل"، يقول: "فإن كان الإشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهما يتفوهون بهذا السخف من الكلام، فكيف يكون يا ترى كلام من هم دونهم في الفلسفة والحكمة من ماديين وطبيعيين"^(٢)

أما الصنف الثالث:- وهم الفلاسفة الماديون أو الطبيعيون، فهم الذين خصهم النورسي بأكبر قدر من النعوت القدحية، وكانت له معهم وقفات عديدة نقضاً لأدلتهم أو

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٤٥، ٦٤٦. وأنظر إحصان قاسم: حياته وآثاره،

ص ٢١٤، ٢١٥. يتصرف

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٤٥.

رداً على شبهاتهم، لأن "أهل الضلالة والإلحاد يستندون دائماً على الأسس الفاسدة للفلسفة الطبيعية المادية، فيوهمون بعض المسلمين بأن لهم أسساً علمية يركنون إليها لصد حقائق الإسلام" (١)

أما الفلاسفة المحدثون والنظريات المادية الحديثة: فهي بلا شك تستند في جذورها الأصلية على الفلسفة المادية القديمة، وبما أننا قد أثبتنا بطلان تلك الجذور وتفاهتها فلا حاجة إذن من حصر الموضوع في فلسفة معينة بالذات، وهكذا لا تجد اسم "كانت" و "نيتشه" وغيرهما، ولا ذكراً لنظرية "دارون" وغيره من الذين نفثوا بنظرياتهم الخبيثة سموماً في عقول أبناء هذا العصر" (٢)

ثم يستطرد النورسي في هجومه للفلاسفة الماديين وخاصة القدامى باعتبارهم الأم المرضعة للفراعنة والناريد فيقول: "نعم.. أن الذي أروضع الفراعنة والناريد وكان السبب في نشوئهم هو الفلسفة القديمة لمصر وبابل التي أرتقت إلى درجة السحر، وكذلك فإن الذي مكن آلاف الآلهة من عقول اليونان في القديم وولد الأصنام هو مستنقع الفلسفة الطبيعية ووحلها.. نعم، إن الذي لا يرى نور الله بسبب من الأسباب الطبيعية فإنه يمنح لكل شيء الوهية ويسلطها على نفسه" (٣)

وبعد أن ألمحنا إلى هجوم النورسي ونقده للفلاسفة وبيان موقفه منهم، نراه يطرح سؤالاً على نفسه ليبين فيه ما قد يخطر في نفوس الآخرين، بأنه كيف يهاجم شخص مثله عمالقة وأعلام... ومن يكون هو حتى يناطحهم ويهاجمهم ويتقد أرائهم ويظهر عورها؟...

ويرد النورسي على هذا السؤال باستعلاء إيماني رائع، إذ أن إيمان النورسي بما يملكه من حق استفاد من القرآن الكريم، جعله لا يتهب من نقد الفلاسفة الذين يعددهم الناس أعلاماً، ولم تمنعه عظمة أسمائهم من أن يحاكمهم ويرد عليهم، وكأنه أستشعر أن معترضاً

(١) إحسان قاسم النورسي: النورسي نظره عامه، ص ٢١٢.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢١٦.

(٣) إحسان قاسم: النورسي نظره عامه، ص ٢١٤. بتصرف.

سينكر عليه فعله هذا، فقال مجيباً: - " وإن قلت " فما تكون أنت حتى تنازل هؤلاء المشاهير أمثال أرسطو وأفلاطون وتتدخل في طيران الصقور مع أنك كذباً؟ ...

أقول لما كان لي أستاذ أزي " وهو القرآن العظيم " فلا أراني مضطراً أن أبالي - ولو بقدر جناح ذبابة - في طريق الحقيقة والمعرفة بأولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبلى بالأوهام، فمهما كنت أدنى درجة إلا أن أستاذهم أدنى بدرجات لا حد لها من أستاذي، فبفضل أستاذي وهمته لم تستطيع المادة التي أغرقتهم أن تبلبل قدمي ...

نعم أن الجندي البسيط الحامل لأوامر سلطان عظيم وقوانينه يمكنه أن ينجز من الأعمال ما لم ينجزه مشير لدى ملك صغير " (١)

ولكن ... إذا كان هذا التلميذ المتواضع (النورسي) الذي لم تستطيع المادة أن تبلبل قدمه واستطاع بهمته الإيمانية أن يهاجم هؤلاء الصقور ويحطم حصونهم المادية الكرتونية بعد أن غاص في مذاهبهم الفلسفية قديمها وحديثها، مستوعباً إياها ليبرهن بالأدلة القاطعة والمنقعة والمقبولة فساد منهجهم وأقوالهم، وأن الحكمة كل الحكمة في القرآن، فهل هذا مؤشر بأنه خاض غمار الفلسفة.. وهل خاضها قارئاً أم خاضها فيلسوفاً ...

هذا ما سنجيب عليه، ونتحدث عنه على صفحات هذا البحث ...

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، النص بالهامش، ص ٦٤٨ وأنظر. إحسان قاسم: النورسي نظرة عامة

سعيد القديم الفيلسوف

يقر النورسي بأنه اشتغل بالفلسفة مدة وتعلق بها تعلقه بالعلوم العقلية، كما اشتغل وتعلق بها غيره من المفكرين، بحيث يصح أن نعد هذه الفترة من حياته الفكرية فترة تفلسف صريح جعله يتخذ من العلاقة بين الفلسفة والحكمة نفس الموقف الذي أتخذه فلاسفة الإسلام، الذين سلموا بمبدأ الجمع بين الفلسفة والحكمة، سواء اتخذ هذا الجمع شكل التداخل كما عند " الكندي والفارابي وابن سينا "، أو شكل التصاحب كما هو عند أبو سليمان السجستاني وأبن رشد "

ونبسط التوضيح بلمحة سريعة لهاتين الصورتين فنقول:-

١- جمع التداخل بين الفلسفة والحكمة: إن الصورة الأولى التي أتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة، هو أنه عبارة عن "تداخل" بمعنى أن الفلسفة والحكمة تدخل إحداهما في الأخرى فما تقرره الحكمة تثبته الفلسفة وما تدعيه الفلسفة تؤيده الحكمة، بحيث تنزلان منزلة الأختين الشقيقتين، ويقوم هذا الوصل التداخلي حسب ما جاء في نصوص بديع الزمان على مبدأين أساسيين:-

أحدهما:- مبدأ تأسيس النقل على العقل: ومقتضاه أن النقل يؤول على مقتضى العقل متى ظهر تعارضه معه.

وثانيهما: مبدأ التوسل بالعقل في النقل: ومقتضاه أن المفاهيم العقلية تكون وسائط في بيان الحقائق العقلية..

وقد عمل النورسي بهذين المبدأين في فترة تفلسفه إذ يجربنا أنه كان يقيم الحقائق الإسلامية على أدلة عقلية كما هي طريقة الفلاسفة، " داخلاً في مناظرة خصومه وخصوم الإسلام وينظر العلماء ويناقشهم في أدق المسائل وأعمقها"^(١)

(١) بديع الزمان النورسي: المتنوي العربي، ص٣٢ وأنظر د/ طه عبد الرحمن: الإسلام على مفترق الطرق، تقديم د/ إبراهيم أبو ربيع، ط١، ص٢٣٤، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٥م. بتصرف.

كما نجد أنه كان يلجأ في توضيح المعاني الإسلامية إلى المفاهيم الفلسفية كشأنه مع معنى "العدل" إذ لجأ في بيانه إلى نظرية "أفلاطون" في الفضائل الأربع - أي العفة والشجاعة والحكمة والعدل - وأيضاً إلى نظرية "أرسطو" في مفهوم الفضيلة باعتبارها وسطاً بين الإفراط والتفريط.

٢- جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة: وهي الصورة الثانية التي اتخذها لجمع التصاحب بمعنى أن الفلسفة والحكمة ولو أنها تعبران عن حقيقة واحدة، تبيان مستقلتين إحداهما عن الأخرى، إذ تكون لكل واحدة منهما لغتها وجمهورها ومنهجيتها ومقصديتها الخاصة فتكون العلاقة بينها علاقة تساقق وترافق أشبه بترافق الصديقين، والأصل في القول بهذا الوصل التصاحبي هو الاعتقاد بأن الفلسفة تأخذ بمبادئ ثلاثة لا تأخذ بها الحكمة:

أحدهما: مبدأ الاندهاش: - ومقتضاه أن فعل التفلسف يتولد من الشعور بالدهشة - أو العجب - إزاء الآثار في النفس، أو إزاء الأشياء في الأفق.

والثاني: مبدأ الاستشكال: ومقتضاه أن الفيلسوف لا يفتأ يوضع الأسئلة تلو الأخرى باحثاً عن الأجوبة عنها.

والثالث: مبدأ الاستدلال: ومقتضاه أن الفلسفة تستند في إثبات حقائقها إلى الأدلة العقلية التي قد تبلغ أعلى مراتب اليقين.

وقد عمل النورسي بهذه المبادئ الثلاثة هي الأخرى في فترة تفلسفه، إذا كان يتمتع بقدرة

إندهاشية قل نظيرها، فلا يرى شيئاً في نفسه أو في أفقه إلا ويرى فيه سراً عجبياً ينبغي إستكناه أمره .

وأيضاً كانت الأسئلة المصيرية تملك عليه مشاعره، وتستحوذ على مداركه، فيشغله طلب الأجوبة عنها طويلاً، ومعاوداً النظر فيها إن تصحيحاً أو تعمقياً .

ولم يكن النورسي يجد من طريق أسلم في إستكناه الأمور التي يندهش لها، ولا في

الجواب عن الأسئلة التي تهجم عليه إلا طريق البرهان العقلي لكي تطمئن نفسه التي بين جنبيه ويقتنع خصمه الذي بين يديه. " (١)

(١) د/ طه عبد الرحمن: الإسلام على مفترق الطرق، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

النورسي "الحكيم"

"شاءت قدرة الله تعالى أن تتجدد تجربة شيخ الإسلام الغزالي المتوفى سنة (٤٩٥هـ) في القرن العشرين على بديع الزمان النورسي، سائراً بذلك سير الغزالي ومسترشداً بعلمه وحكمته، فالتقدير الكبير الذي يكنه النورسي للغزالي هو الذي أفرز هذا التوافق بينهما، إذ نجده يعتبره من ورثة الأنبياء" (١)، "ويدعوا إلى وجوب الاسترشاد بتعاليمه" (٢) بل ويرى أن مهمة "رسائل النور وطلابها هي الحفاظ على مسلك أستاذهم حجة الإسلام الغزالي" (٣).

"وإذا كان الغزالي نبه إلى فساد مذهب الفلاسفة وبين أنهم "على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد" وخصص كتابه "تهاقت الفلاسفة" لتحليل ونقد آرائهم ومناهجهم" (٤)

فإن النورسي لم يسلم بالأخذ بهذا القول (حتى وإن كان قائله الغزالي) دون أن يستوعب ويلم بالمذاهب الفلسفية قديمها وحديثها ليقف بسفينة نفسه التواقفة الطوافة على أي بر سيرسوها •

ولعل هذا كان موافقاً لما قاله الغزالي في مقدمة كتابه (مقاصد الفلاسفة): "فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال، بل هو رمى في العمياء والضلال" (٥)

"وذلك لكي يحاول أن يجد له أرضاً صلبة يقف عليها ويطلق منها سهامه إلى الفلسفة

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٣٦١.

(٢) المرجع السابق نفسه / ص ٥٧٧.

(٣) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٢١٦.

(٤) د/ محمد بتهميل: موقف النورسي من الحضارة الغربية، أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٥) د/ أحمد السايح: المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة، ص ٢٥، وانظر. الغزالي: مقاصد الفلاسفة، ص ٣١.

(الإلحادية الفاسدة) أي أنه يحاول بناء وجهة نظر مضادة يجتهد في أن تكون منطقية ومتمينة ومستندة إلى أسس قوية، وهذا يعني في النهاية أنه يتفلسف.

وقد قال أرسطو ذات مرة " إن الذي يرفض الفلسفة يتحتم عليه أن يتفلسف " (١).

ولقد عمل النورسي بنصيحة الغزالي وأرسطو، ودفعه للعمل بهذا النصح " انبهاره وهو في مرحلة تكوينه العلمي بقواعد البحث الفلسفي ومناهجه الاستدلالية وأسس المنطقية، سواء منها المناهج والأسس التي أبدعها اليونان، أو التي أنتجها علماء الإسلام، والتي أسهمت في تطور الفكر الغربي، معتقداً أنها تمكن العقل الإنساني من معرفة حقيقية الوجود والحياة والإنسان ومن حسن تحليل كثير من الظواهر الفكرية والاجتماعية، فقد أغوته الفلسفة بمصطلحاتها المزركشة وقواعدها المنمقة وتعابيرها الآخذة قبل أن يصحوا من غفلته ويتنبه إلى تهافتها وعجزها عن بيان الحقائق والتصورات التي تقوم عليها سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، وقبل أن يتفطن إلى أن افتتانه بها قد أحدث حجاباً على عقله منعه من الفهم الصحيح للحقائق الكونية، وكون غشاوة على روحه حرمة من تلمس كثير من الأنوار الربانية، فكان ملزماً بالقيام بمجهود عقلي كبير، ونشاط روحي عميق للتخلص من كل ذلك.. " (٢)

" من هنا يبدأ العهد الجديد لسعيد النورسي الجديد، إذ يتجرد من لباسه الفلسفي القديم ليلبس لباساً جديداً، ألا وهو لباس الحكمة .

أو قل ها هنا تشهد موت بديع الزمان الفيلسوف، وولادة بديع الزمان الحكيم. " (٣)

ونسوق في هذا المقام نصاً بهذا الشأن، وهو ما أشار إليه النورسي بقوله:-

" راجعت أول ما راجعت تلك العلوم التي أكتسبتها سابقاً أبحث فيها السلوة والرجاء، ولكن كنت - ويا للأسف - إلى ذلك الوقت مغترفاً من العلوم الإسلامية مع

(١) ١.١ / د/ محمود حمدي زقزوق: مقدمة في الفلسفة، ص ١٠، ١١.

(٢) د/ محمد بتييلة: موقف النورسي من الحضارة الغربية، أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٣٠٨.

(٣) يعتبر بديع الزمان النورسي هذه الولادة الجديدة بمثابة تجلي لاسم " الحكيم " أنظر المكتوبات ص

العلوم الفلسفية ظناً مني - ظناً خطأ جداً - أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنور القلب بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيراً، بل أصبحت عائقة أمام سموي المعنوي.. نعم، بينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمه القرآن المقدسة تسعفني رحمة من العلي القدير وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية وطهرت روحي منها - كما هو مبين في كثير من الرسائل - إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قبساً ولم أتمكن من التنفس والانسراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع من القرآن الكريم الذي يلحن " لا إله إلا الله " فمزق الظلام وبدده، فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان " (١)

ويقول في موضع آخر " فما كان من " سعيد الجديد " إلا القيام بتمخيض فكرة والعمل على نقضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة " (٢)

وبعد الدراسة والبحث في مؤلفات النورسي نجد أنفسنا أمام فليسوف توافرت به جميع خصائص الفكر الفلسفي من فكر عقلاني وأسلوب أدبي أتاح له أن يناقش اعتنى المشكلات بأكبر قدر ممكن من الحكمة والتميز والبساطة والواقعية والدقة والجودة والإتقان..

ونلمس من خلال رسائله أنه غاص بثاقب فكرة في بحار العلوم والمعارف لاقتناص الفكر الحر المستنير، وتعمق في جميع العلوم باعتبار أن الفلسفة هي الغطاء لكل العلوم وأن الفكر العقلاني ليس قاصراً على معيار محدد من العلوم، أو مقتن لعلم من العلوم دون غيره، مما أتاح له أن يقول شيئاً ذاتياً في كل رأي وفي كل فكر بحس نقدي متميز..

وساعده على ذلك فكر متوقد وثاقب، وذهن نافذ ومنطق طبيعي، فهو سريع الالتفاف إلى مكان الضعف والقوة في النظرية المعروضة، فما من قضية إلا وسلط عليها فكرته

(١) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ٣٦٧، ٣٦٨، وانظر / طه عبد الرحمن: الإسلام على مفترق

الطرق، ص ٢٣٦، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٥.. بتصرف.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ١٧٦.

الأصلية ولم يتم بشرح نظرية إلا وكشف عن عيوبها ومحاسنها وأوضح موقفه منها وكان بهذا حاضراً بذاتيته في كل موقف وفي كل رأي.

وخلاصة ما تم طرحه على صفحات هذا البحث (بلمحة سريعة):-

- يلفت البحث النظر إلى موقف النورسي من الفلسفة، والتفكير الفلسفي والفلاسفة، والموازنة بين ثمرات القرآن وثمرات الفلسفة، ومن خلال ذلك نستنتج: أن النورسي يهاجم الفلسفة والفلاسفة الماديين الإلحاديين بنعوت قاسية، ويسفه آرائهم ومناهجهم القائمة على مسطرة اللادين.

ولكنه يؤيد ويحث على التفكير الفلسفي بعقل إيماني قرآني.

ومن خلال استعراضنا لموقف النورسي من الفلسفة نستنتج عدة أمور، أجد من المهم (من وجه نظري) عرضها، وهي كما يلي:-

- أن النورسي سعى من خلال موقفه الرافض للتيارات الفلسفية المعادية للدين إلى صد التأثيرات السلبية لهذه التيارات لخطرها على العقيدة وعلى واقع المجتمع، هذا من ناحية.

ثم سعيه لإزالة التأثير السلبي الذي علق بعقول بعض المثقفين، فنتج عنها أفكاراً ضارة، وأرادوا رواجها.

- أن الفلسفة هي نمط للتفكير، وتشكل محتواها من الأفكار التي يصنعها الفيلسوف بعقله وبتأثير اعتقاداته، والفلسفة بذاتها ليست محرفة، بل العكس إن الذي يفهم الفلسفة جيداً ويعرف أفكار الفلاسفة بشكل جيد يستطيع مجابهة الأفكار المنحرفة بالاستناد على ذلك.

كما أن الفلسفة طورت الفكر أكثر من تشيبتها للعقل البشري، وفتحت الطريق إلى الأفكار والآراء والنظريات والاكتشافات الجديدة، ولو لم تحدث أفكار مختلفة لما استطاع النورسي نفسه أن يطرح الأفكار الجديدة.

والنورسي نفسه أعلن قبوله دستور "تعرف الأشياء بأضدادها" لذا نرى أن الآراء

المختلفة والمعارضة وحتى الآراء المنحرفة هي التي تعرفنا بقيمة آرائنا الصائبة.

- يبدو لي أنه ليس من الصواب مماثلة موقف النورسي بموقف الغزالي للفلسفة والفلاسفة (وإن كنا لا ننكر التشابه إلى حد ما) حيث أن نقد النورسي وموقفه يعني الفحص والفحص معناه تبيان الحقيقة، كما أنه احتاط في رأيه وحكمه حول الفارابي وابن سينا ولم يحكم بما حكم به الغزالي، بل وضعهما في إطار أنهما مؤمنين... ولكن عاديين.

- يبدو لي أن طرح النورسي " لسلسلة النبوة " تجاه " سلسلة الفلسفة " وموازنته بين " ثمرات القرآن " و " ثمرات الفلسفة " كان من الأفضل عدم القيام به، لأن المقايضة تتطلب المماثلة، وهذا غير متوفر، وغير موجود، ولو لم يقم بهذا الطرح لكان أفضل، وذلك لأن سلسلة النبوة والقرآن مصدرهما إلهي مباشر، ويضمون أوامر ونواهي الوحي، وماهيتهم مختلفة، وليس للعبد أو العقل البشري أثر فيها ولكن كل ما يتعلق بالفلسفة هي أثر العقل البشري على الأغلب، وعندما يتفلسف الإنسان يستطيع أن يقوم بتوفيقها مع الأسس التي جاء بها الوحي، أو بالاستفادة منها.

أما إذا كان هذا الطرح من أجل إظهار وتقديم البديل (أي عن الفلسفة المادية الإلحادية والتي تؤله الطبيعة) من أجل البحث والتنقيب في القرآن وبيان أفضليته لكونه يحتوي على مخزون معرفي، والبحث في الكون بمنظار قرآني، وذلك لبناء وتشيد صرح معرفة إسلامية، فإن هذا الطرح يعتلي قمة الصواب.

- يبدو لي أنه ليس من الصحيح أن النورسي ينكر الفلسفة، ومن أجل فهم النورسي الفهم الصحيح وإعادة الظن بأنه ينكر الفلسفة، فإنه لا بد من فهم الدوافع، والنظر إلى الفلسفة التي يرفضها، والنظر إلى المرحلة التي عاش فيها، وخاصة مرحلة المشروطة الثانية، حيث بدأت تتغلغل مختلف التيارات المادية للإسلام مما نتج عنه آثاراً سلبية على المجتمع التركي، وخاصة المثقفين منهم والساسة.

- أن نضع بعين الاعتبار عند التعليق على نظرة النورسي للفلسفة، الأهمية التي أعطاها للعقل كمصدر من أهم مصادر المعرفة، ويتجلى ذلك في حثه على استخدام العقل في كلتا المرحلتين من حياته (سعيد القديم - سعيد الجديد) وطالب المسلمين خاصة بذلك لأن

العقل هو أهم ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات، كما أن القرآن حث على النظر والتفكير واستخدام العقل، وهو الذي جعل الإسلام يتميز عن غيره من الأديان

- إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، التي تردت في الضلال والإلحاد ومستنقع الطبيعة، وليس الفلسفة على إطلاقها، حيث أن قسم الحكمة من الفلسفة الإيجابية التي تخدم الحياة الاجتماعية للبشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقى الصناعي فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن.... لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة.

المبحث الثالث

موقف النورسي من الحضارة الغربية

- ويشمل على ما يلي:-
- تصفية " الذات " قبل نقد " الآخر " .
- أسباب نهضة أوربا .
- أوروبا النصرانية .
- أوروبا المادية الإلحادية .
- الحضارة الغربية وتمهيش الدين .
- أخلاقيات المدينة الحديثة وموقف النورسي منها .
- النورسي يرفع شعار (نخذ ما صفا ودع ما كدر) .
- أسس المدينة الحديثة .
- أسس المدينة الإسلامية من المنظور النورسي .

موقف النورسي من الحضارة الغربية

لقد كان لاختلاف أنظار المفكرين والمجددين والمصلحين وتعدد اتجاهاتهم ومشاربهم والظروف البيئية والاجتماعية والسياسية الأثر الكبير في إثارة الجدل حول الحضارة الغربية وانقسامهم إلى اتجاهات وفرق تتمحور حول الرفض والقبول...

فمنهم من يدعوا إلى ضرورة تقليد الغرب في كل شيء (حذو النعل بالنعل) حتى تمنى بعضهم أن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، وتراهم على شاشات التلفاز أو في الندوات والمؤتمرات يتحدث بلغة الغرب أكثر من أن يتحدث بلغته العربية، ومن اشتهروا وأعلنوا تأييدهم الكامل للحضارة الغربية والأخذ عنها بل ونقلها كما هي: مثل: سلامة موسى وأحمد لطفي السيد، وطه حسين.

وهناك من رفضها رفضاً تاماً وهم أصحاب الاتجاه السلفي، وأبرزهم محمد بن عبد الوهاب " " وجمال الدين الأفغاني " الذي يرى أن علاج الأمة إنما يكون برجعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته " (١).

وهناك من يقرر التعامل مع الحضارة الغربية والأخذ منها ما هو نافع ويوافق مبادئ الإسلام ورفض ما يخالف تعاليمه، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الوسطي المعتدل الأمام رفاة الطهطاوي و محمد عبده، و محمد إقبال، والنورسي..

لقد أخذ النورسي يتجول بمنظاره القرآني ليرصد ما يوافق ويتواءم مع أرض الإسلام الخصبية ومائها النقي الصافي وقلوب أصحابها المؤمنة.. فأعلن قبوله ولكن " بحذر ".

وما وجدته ضبابياً وملوثاً....، أعلن رفضه له، لأنه يخالف تعاليم الإسلام.

ومما أود الإشارة إليه " أننا في عالمنا الإسلامي اليوم نقف عند مفترق طرق خطير بين أصحاب المذاهب والأيدولوجيات الكارهة للإسلام، أو الراضية للأديان وحرصهم على وصف الحضارة بالعربية، لا حجاباً في العروبة أو تقديراً لدورها واعتزازاً بمكانتها، وإنما

(١) د/ عزت قرني: العدالة والحرية، عالم المعرفة، سلسلة المجلس الوطني للثقافة، ص ٢٣٩، الكويت،

رفضاً " للإسلام" ورغبة في الانتقاص من دورة كقوة حضارية كبرى أسهمت إسهاماً منقطع النظير في بناء صرح الحضارة البشرية.

كل ذلك في محاولة منهم لطمس دور الإسلام عقيدةً وفكراً ومنهاجاً، وإحلال العروبة محل الإسلام.

ولكن هيهات... فالحقيقة التاريخية أقوى وأرسخ، ولهذا نجد أنفسنا أمام ثلاث اتجاهات متباينة

ومختلفة، بين متشككين في ماضٍ وحاضر ومستقبل الحضارة الإسلامية..... وبين مفتونين بحضارة الغرب..... وبين أسفين على مجد أديب...

أما المتشككون في ماضي الحضارة الإسلامية العربية وحاضرها ومستقبلها: فيمثلون الجانب الهدام الذي لا يرى في ماضي الحضارة إلا جحوداً، ولا في حاضرها إلا عجزاً، ولا في مستقبلها إلا قنوطاً •

وقد فات هؤلاء الهدامين أن الحضارة الإسلامية العربية كانت بروحها وعلمها حركة تقدمية عرفتها مسيرة التاريخ، كل ما في الأمر هو أنها حركة تقدمية داخل إطار متماسك من القيم الدينية والأخلاق الكريمة.

أما المفتونون بالحضارات الأجنبية: فقد بهرتهم الآراء المستوردة والقشور الزائفة بكل ما تحويه من انحلال وهدم للقيم الروحية والخلقية، وتحت تأثير هذه الجاذبية البراقة تخلوا عن أصولهم ونسوا جذورهم، مما جعل بنائهم هشاً لا قواعد ولا أساس له •

وهم عندما قبلوا على الحضارات الأجنبية لم يأخذوا منها الجانب الجاد النافع بقدر ما أخذوا الطلاء البراق بما فيه من رذائل ومفاسد.

وقد نسي هؤلاء أن حضارة الإسلام في أزهى عصورها لم تعط ظهرها أبداً للحضارات الأخرى السابقة أو المعاصرة، وإنما تدبرت أفاقها في حيطة وحرص، لتفرق بين الصالح النافع وغير الصالح الضار، وبذلك عرفت كيف تتقي غذائها وتتجنب كل

ما من شأنه أن يعكر صفوها أو يفسد صورتها النقية" (١)

ولعل هذا ما فعله النورسي، حيث أخذ بزام الحضارة الإسلامية وقاد سفيتها من حيث توقفت حتى يصل من خلال تعاليمها النقية بالبشرية إلى بر التقدم والازدهار، ثقافياً وعلمياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

ولهذا نجد النورسي يتأسف على هؤلاء المقلدين المفتونين بالحضارة الغربية قائلاً:

" يا خسارة أولئك الذين يقلدوهم تقليداً أعمى ويتبعونهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فيأبنا هذا الوطن لا تحاولوا تقليد الإفرنج" (٢)

ويبين النورسي كذلك أن حضارتنا مرهون تقدمها بتمسكنا بتعاليم الدين وبما تحويه من قيم وأخلاق، حيث إن الشرق لن ينهض ويتقدم بالعلم فقط، فنحن لا نشبه الغربيين في ترك الدين " إذ المهيمن على قلوبنا الشعور الديني، فإن بعث الأنبياء في الشرق يشير به القدر الإلهي إلى أن الشعور الديني وحدة هو الذي يستنهض الشرق ويسوقه للتقدم والرقي" (٣).

"ومن يتأمل كليات رسائل النور يجد أن الأمة الإسلامية تملك رصيذاً ضخماً من القيم الحادفة وتوجهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند إستثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمح لها بأن تنمي فلسفتها الحضارية والفكرية والثقافية وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية" (٤)

أما المترحمون على الحضارة الإسلامية: فيحلوا لهم بين حين وآخر أن يقيموا لها عزاء في شكل مؤتمر أو ندوة يذكرون فيها محاسن حضارة الآباء والأجداد، وربما يكن في التغني بأبجاء الماضي من شحذ للهمم وإستثارة للعزائم، فأننا نأمل ألا يفوتنا أن الحضارة

(١) ا١٤/ سعيد عبد الفتاح عاشور: حضارة الإسلام، ص ١١-١٣، طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية، ٢٠٠٤.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ١٨٢.

(٣) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥١٧.

(٤) ا١٤/ أحمد عبد الرحيم السايح: قضايا معاصرة في فكر النورسي، ص ٣٠، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٥.

الإسلامية العربية ذبلت، ولكنها كالشجرة الضخمة الممتدة الجذور في الأعماق، لأن جفت أوراقها لإفتقارها إلى الغذاء المناسب، أو لعدم العناية بها، فإنها من الممكن بزوال هذه الأسباب أن تستعيد نضرتها لتستظل البشرية بظلها في الحاضر والمستقبل كما استظلت بظلها في الماضي.

ثم إن ذبول شجرة الحضارة الإسلامية لا يرجع إلى عدم قدرتها على مسايرة التطور العالمي الحديث، وإنما يرجع إلى تقصير أبناء هذه الحضارة وأصحابها وتحليلهم عن روحها ومبادئها ومثلها^(١)

ولعل هذا ما فعله النورسي، حيث لم يشغل نفسه بالنويع والبكاء والعيويل والالطم والصراخ ولكنه شغل نفسه وجعل كل هم أن يعيد لشجرة حضارة الإسلام نضرتها من خلال يقظة الأمة الإسلامية من سباتها وغفلتها، هذا مع رفضه للانزواء بالحضارة الإسلامية والتفوق بها فقط، بل ويأمدادها من مياه الحضارات الأخرى الصافية وبها ينفعها ويلائمها.

ولعل ما يبرز اعتلاء فكر النورسي أنه لم يدعوا كبقية المجددين والمصلحين بالوقوف عند حدود السلفية الموروثة وصب حاضرنا في قوالب السلف والعودة لمنابهم فقط، ولكنه أثبت تميزه وانفراذه حين دعا إلى التمسك بالسلف من خلال ثورة تجديديه تواكب العصر، ويأستلهم الأصول والثوابت والنظر فيها بعقل معاصر، والمزوجة بين الصالح منها وبين الجديد والعصري لمواجهة التحديات والانطلاق إلى الأمام بفكر عقلائي مستنير بهدي القرآن.

ومن ناحية أخرى فإنه عالج قضية " الحضارة الغربية " من جميع الزوايا، ولم يترك جانباً من جوانب هذه الحضارة إلا وقام بدراسته وبحثه وتحليله ومناقشته، ثم عرضه من خلال معالجة نقدية، مع أنه لم يقف عند حد الرفض والنقد فقط، بل تعداه حتى لا يكون كمن يصف الداء بلا دواء جاعلاً المريض واقفاً على قبره يتنظر في عجل لحظة موته...

(١) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور: حضارة الإسلام، ص ١٢، طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة. بتصرف

ولكن وصف الداء وبين العلاج البناء، والاستيعاب الموزون بميزان الشرع.
ولكن نود أن نتعرف، هل كان للفلسفة أثر بحكمه على الحضارة الغربية؟

obeykandali.com

تصفية "الذات" قبل نقد "الأخر"

لقد كان نقد النورسي للحضارة الغربية امتداداً لنقده السابق للفلسفة، لأنه رأى أن سببها أوربا وتوهمها مساوئها فضائل، وسريان السفاهة والضلالة والانحلال سببها ومرجعها تعفنها بظلمات الفلسفة الطبيعية والمادية.

لهذا "أقر النورسي بوجود تصفية نفسه من أثر الفلسفات الأوروبية التي علقت به قبل أن يبين أسباب حكمه على الحضارة الغربية بالسفاهة، معلناً بذلك عن بداية مرحلة جديدة في حياته الفكرية والعملية، فقد صرح قائلاً في المذكرة الخامسة من "اللمعة السابعة عشرة": "حينما سار "سعيد الجديد" في طريق التأمل والتفكير، انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية.

فما كان من "سعيد الجديد" إلا القيام بتمحيص فكره والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفهية.

فراى نفسه مضطراً إلى إجراء المحاوراة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا لكبح جماح ما في روحه من أحاميس نفسانية منحازة لصالح أوربا، فهي محاوراة مقتضبة من ناحية ومسهبة من ناحية أخرى" (١)

ورغم تصفيته لذاته قبل نقد الآخر لكي يكون نقده نقداً موضوعياً، فإنه لم يكتفي بذلك فقط بل إنه يدعو من يسمعه ويقرأ رسائله إلى تصفية ذاته من حسن الظن به (أي النورسي) وبكلامه، وأن لا يقبل كلامه على علته دون إختيار وتمحيص، ووزن الكلام المقروء والمسموع بميزان الإسلام حيث يقول: "ليس هناك من يوصم نفسه بالفساد، بل غالباً ما يظهر المفسد نفسه بمظهر الصلاح والصواب..."

نعم إنه مثل مشهور (ما من أحد يقول لمخيضه حامض) فعليكم أن تختبروا كل قول

(١) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ١٧٦، وأنظر د/ محمد بتيله: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور ص ٣٠٦.. بتصرف.

تسمعونه ولا تقبلوا أي كلام كان دون اختيار وامتحان، فالللكلام الفاسد رواج في عصرنا هذا حتى كلامي أنا لا تقبلوه على علاقته- بناءً على حسن ظنكم بي- وإنما دعوا أي كلام كان يظل على هامش تفكيركم، حتى إذا ما نجح في الاختبار وظهر صدقه وبيان معدنه الذهبي، عند ذلك أحفظوه في القلوب *

أما إذا كان صدأ- ومن معدن رخيص- فاطرحوه أرضاً غير مأسوف عليه " (١)

أسباب نهضة أوروبا

يبدأ النورسي كأول خطوة يقوم بها في تحديد أسباب النهضة للحضارة الغربية، وكيف وصلت إلى ما هي عليه...

فيرى أن ضيق المكان وكثرة عدد السكان ولطافة المناخ ووفرة الحديد وكثرة الحاجة هي الأسباب التي دفعت أوروبا إلى التقدم والرقي فيقول: " إن أوروبا على الرغم من كونها عشر الخمس للكثرة الأرضية، فإنها جذبت ربع البشر نحوها بلطافة مناخها الفطري، وإنه ثابت أن اجتماع الأفراد الكثيرين يولد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة - كالتقليد وغيره- ومن هنا تصبح الحاجة أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع معلم العلم *

نعم إن التوجه نحو الصناعة والميل إلى المعرفة ينشأ من الكثرة فبسبب ضيق المكان في أوروبا وكثرة بحارها وأنهارها التي هي وسائط طبيعية فيها، والتعارف ينتج التجارة، ولكثرة ما فيها من الحديد الذي هو منبع جميع صناعات أوروبا، أعطى لمدنهم السلاح القوي حتى غصبت مدنات الدنيا وأغارت عليها " (٢)

أراد النورسي من النص السابق أن يبين نعم الله التي أنعم بها على أوروبا، وكانت سبباً في نهضته ورقية، والتي تستوجب الشكر للواهب المنعم، من خلال سعيها لمؤاخاة البشرية ونفعها ولكنها حولت هذه النعم إلى نقم تنشره الرعب وحمل السلاح، وسعيها للغصب

(١) إحسان قاسم: التورسي حياته وآثاره، ص ٢١٧.

(٢) بديع الزمان التورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٦٨.

والإغارة ٠

ولعل هذا سبب من الأسباب التي تجعل من له مسكة عقل أن يرفض حضارة غصبت
مدنيات الدنيا، والذي يطلقون عليه ما يسمى الآن بالاستعمار.
ولكن هل كان رفض النورسي للحضارة الغربية مطلقاً وعماماً ٠٠ أم أنه وجد فيها
جانباً يأنس فيه الصلاح والنفعة...
هذا ما ستحدث عنه فيما يلي.

أوروبا النصرانية

يعتقد النورسي أن مظاهر التقدم العلمي، الذي تميزت به الحضارة الغربية الحديثة، قد
أسهمت فيه بعض التصورات الإيجابية في الفكر النصراني، فقد استثنى في انتقاده لمقومات
الحضارة الغربية قائلاً: " ولئلا يساء الفهم، لا بد أن ننبه ! أن أوروبا اثنتان..
إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت
خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل
والإنصاف...

فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من أوروبا " (١)

(١) يدبع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٧٦. وأنظر د/ أحمد عبد الرحيم السايح: قضايا معاصره،
ص ٢١. وأنظر د/ محمد بتهيله: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٣٠٩.

أوروبا المادية

بعد أن خاطب النورسي أوروبا النصرانية النافعة للبشرية، توجه بخطابه إلى أوروبا المادية الضارة والمخربة للبشرية وللكون بقوله: "وإنما أخاطب أوروبا الثانية: تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاثية، وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها وتوهمت مساؤها فضائل، فسأقت البشرية إلى السفاهة وارتدت الضلالة والتعاسة..."

ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوروبية بعد أن استثيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجهت خطابي إلى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرة التافهة، والحضارة الفاسدة السفيهية.. وخاطبتها قائلاً: يا أوروبا الثانية: اعلمي جيداً إنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهية، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شلت يداك وبثت الهدية هديتك، ولتكن وبالأعلى عليك وستكون...

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود، لقد أفسدت - أيتها الروح الخبيثة - البشرية حتى طاشت بتعاليمك فتقاسي منك العذاب المرير بإذاقتك إياها عذاب الجحيم في نعيم جنة كاذبة.

أيتها النفس الأمارة للبشرية... إلى أين تسوقين البشرية.

هب أن أمامنا طريقين، فسلطنا أحدهما، وإذا بنا نرى في كل خطوة خطوها في الطريق الأول مساكين عجزه بهجم عليهم الظالمون، يغصبون أموالهم ومتاعهم ويخربون بيوتهم وأكواخهم بل قد يجرحونهم جرحاً بليغاً تكاد السماء تبكي على حالتهم لفجعة، فأينما يمد النظر ترى الحالة نفسها، فلا يسمع في هذا الطريق إلا ضوضاء الظالمين وصخبهم وأنين المظلومين ونواحهم فكأن مأتماً عاماً قد خيم على الطريق...

لذا يضطر سالك هذا الطريق إلى أحد أمرين:

إما أن يتجرد من إنسانيته، ويحمل قلباً قاسياً غارقاً في متهى الوحشة، لا يتألم بهلاك الجميع، طالما هو سالم معاف.

أو يبطل ما يقتضيه القلب والعقل .

فيا أوروبا: ما ورتك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة، وقسمت مُلك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تعبد من دون الله...

فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الأعور يضطر كل ذي حياة وكل إنسان أن يصارع وحدة ما لا يعد من الأعداء، ويحصل بنفسه على ما لا يجد من الحاجات....

مع أنه لا يكفى كل ما في يده لو احد من مطالبه، فعندما يصاب - مثلاً - بمصيبة لا يرجوا الدواء لدائه، إلا من أسباب صُم، حتى يكون مصداق الآية الكريمة { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ }^(١)

إن دهائك المظلم، قد قلب نهار البشرية ليلاً، ذلك الليل البهيم بالجور والمظالم " ^(٢)

(١) سورة الرعد: آية رقم (١٤)

(٢) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٧٦-١٨٠. باختصار.

الحضارة الغربية وتهميش الدين

بعد أن تحدث النورسي لأوروبا النافعة النصرانية، وأوروبا السفهية الضارة، والتي كانت سبباً في إفساد البشر بدهائها الأعمور، ينتقل لبيان مثالب هذه الحضارة والعلة في فساده وضررها للبشرية، فيقول موضحاً أسباب تعفنها ومساؤها قائلاً: "يا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها وانغمست في السفاهة والضلالة، لقد أهديت بدهائك الأعمور كالرجال لروح البشر حاله جهنمية، ثم أدركت أن هذا الحالة داء عضال لا دواء له، إذ يهوى بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الويل إلا ملاحيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس وتخدير الشعور مؤقتاً، وكما ليأتك المزخرقة، وأهواؤك المنومة... فتعسا لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك" (١)

ثم يسوق النورسي بعد ذلك نصاً يبين فيه أن الحضارة الغربية لا تسع، وصمت أذنها عن تعاليم الدين، فأوقعت البشر في بئر الفقر الأخلاقي والرذيلة، وفتحت الطريق للظلم والاستعباد وارتكاب المحرمات فيقول: "إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كلياً إلى الأديان لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها متطلباتها، وهي التي تتهادى في تهيج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات..."

زد على ذلك فقد ألقت بذلك الإنسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمر بعد أن شجعت على وسائل السفاهة •

وهكذا بددت الشوق لديه إلى السعي والعمل، فأضاع الإنسان عمره الثمين سدى بإتباعه هوى المدنية الحاضرة، ويسيره وراء سفاهتها وهوها" (٢)

(١) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٧٨.

(٢) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٣٨٠.

وتوافق رؤية النورسي وحكمه على الحضارة الغربية مع رؤية وحكم " محمد الغزالي " حيث يقول:- " هناك إحساساً عاماً بان هذا التقدم المادي لم يواكبه تقدم روحي، وإن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن إنسان العصر الأول في غرائزه وشهواته... وإذا كانت ثمة فروق ففي الوسائل لا في البواعث والغايات

بل لقد قيل في إنسان هذا العصر: إن عضلاته أكبر من عقله... والحضارة الغربية اتسع علمها وضاق أدبها، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها، فهي الآن تصنع أجيالاً لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب، وتؤمن أنها لن تمحى مرة أخرى أبداً.

ومن هنا غلب عليها هذا السعار في اقتناص الموجود، والركض وراء المفقود، والقد على من وجد، والازدراء على من فقد...

إنها لا تؤمن بالله واليوم الآخر، ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة:

إن كانوا هوداً: فهمهم الأكبر امتلاك أرض الميعاد كما يحملون ٠

وإن كانوا نصارى: فهمهم الأكبر استعادة قبر المسيح والثأر ممن أخذوه في العصور الوسطى.

فهل هذا تقدم علمي، أم نجاح للغرائز الهابطة والأغراض الدنيا.. إن العلم مهما تقدم لا يغني عن الإيمان، والإيمان الذي نحترمه هو الذي يعانق العقل وتزدان به الحياة " (١)

ويوجه النورسي الأنظار إلى أن أسس حضارتنا هو الدين، وأن ابتعادنا عن الدين والعقيدة الصحيحة كان سبباً لتجميد هذه الحضارة..

وفي المقابل يبرهن على ذلك بأن الحضارة الغربية عندما همشت الدين جانباً زادت عيوبها وقلت حسناتها، فيقول: " إن المدينة الحاضرة الغربية لسلوكها طريقاً مناقضاً لأسس ودرساتير السماء، وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها، فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية، فاختل ما هو

(١) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، ص ٢٢٣-٢٢٧، دار ثابت، القاهرة، ١٩٩٦. بتصرف.

مطلوب من المدينة ومقصود منها. " (١)

(١) بديع الزمان التورسي: الملاحق، ص ٣٧٧.

أخلاقيات المدينة الحديثة وموقف النورسي منها

يوجه النورسي دعوته إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان، وأخلاقيات المدينة الحديثة المادية " مدينة أوروبا "

فيقرر النورسي: أن مبدأ الإيمان أساس تركز عليه كليات الأخلاق، وحين تفتقر المدينة الحديثة على هذا الأساس، فيستولى الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخذاع، بدلاً من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والأخوة والمرؤة والمحبة والفضيلة والتضحية ورضى الله والشواب الأخروي، وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهر ونها، فحيثما تتسم الحياة بوقاحة وإهمال أطفالها، وسكر وعريضة شبابها، وظلم وتجاوز أقيائها وبكاء وأنين شيوخها...

فلترن آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشئون الإنسان لتعرف الحق والحقيقة" (١)

ولعل هذا ما أكده الأستاذ " محمد فتح الله كولن " من أن النورسي رأى أن أهم مشكلة يجب تناولها هي مشكلة الفوضى (الأخلاقية) النابعة من الكفر والإلحاد .
لذا قضى حياته كلها وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء..

ومن ثم، تناول النورسي أزمة المفاهيم (الأخلاقية) التي تطلقها المدينة الحديثة حتى بات على يقين أنها مفاهيم معكوسة براءة، فيقول: " إن ما تراه المدينة ترقيا ما هو إلا سقوط، واقتداراً ما هو إلا ابتذال، وانتباها ما هو إلا انغماس في نوم الغفلة و(نزاهة) ما هو إلا رياء نفاقي وذكاوة ما هي إلا دسائس شيطانية، وإنسانية ما هي إلا قلب الإنسان

(١) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ٢٨٣، ٢٨٤ وأنظر د/ زياد خليل: مؤتمر العولمة والأخلاق،

حيوانية" (١)

ولهذا فالنورسي يرى أنه ليست هذه المفاهيم فحسب، بل كل المفاهيم المتصلة بالسياسة والاقتصاد والمرأة كلها مفاهيم مغلوبة لأنها لا تركز على قاعدة الإيمان بالله تعالى:-
ومن هنا توجه نقد النورسي وذمه للحضارة الغربية لأنها تنشر الكفر وتعمل على خواء الروح وفقرها، فكيف لمن أصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائب هائلة أن يسعد بكونه في ذروة الرفاهة والزينة بجسمه؟

هذه الحالة الجهنمية هي التي أهدتها المدنية للبشر ثم تفتنت لهذا الداء العضال، دواء يبطل الحس بالجملة، وهي الملاهي الجذابة والهوسات الجلابة، فتعسأ لها ولدوائها" (٢)
يا أيها الأوروبا: إنك أخذت يمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفهية، تدعي أن سعادة البشر بهما... شلت يداك وبثت هديتك..

ألا يا ناشر الكفر والكفران... هل يقال لمن روحه مع قلبه في جهنم، وجسمه في جنة كاذبة زائلة: أنه مسعود؟ " (٣)

لقد خاطب النورسي بقسوة شديدة تناسب شدة استخفاف أوروبا بالإنسان وأخلاقه، مبيناً أن أوربا قد أفسدت البشرية بتعاليمها، وهوت بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين ولا علاج ولا دواء لها... إلا إبطال الحس وتخدير الشعور. " (٤)

وبين النورسي أن المدنية الحديثة ولدت ورسخت وأفرزت النكران للخالق المنعم، والكفر والجحود بنعمه.. " نعم.. إن المدنية الأدنية الظالمة قد عوقبت بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله تجاه ما أنعم عليه سبحانه من الخوارق الحضارية، لصرفها تلك الخوارق إلى الدمار، حتى سلبت سعادة الحياة كلياً، وأردت الناس الذين يعدون في

(١) بديع الزمان النورسي: المثوي العربي، ص ١٩١.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) بديع الزمان النورسي: المثوي العربي: ص ٢٦٨.

(٤) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ١٧٨ وأنظر د/ زياد خليل: أعمال مؤتمر العمولة والاخلاق،

ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى من دركات الوحوش الضالة، وأذابتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها" (١)

ويتقد بقسوة ترسيخها لأخلاقيات الصراع والجدال، فيقول: "يا أوروبا الثانية الفاسدة: إنك تستندين إلى أسس واهية نخره فتزعمين: أن كل كائن حي مالك لنفسه ابتداءً من أعظم ملك وإنهاءً إلى أصغر سمك، كل يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحد إلا للذته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة، فغاية همته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته" (٢) فنشأ عن ذلك الصراع والمنفعة وعدم التعاون

وعلى سعيد السياسة يبين النورسي ما سادها من أخلاقيات كالتعصب والعنصرية والديكتاتورية والاستبداد، فين " أنه ظهر بظهور المدنية الحديثة مفاصد أخلاقية كثيرة، كالتعصب العنصري والأنانية... " (٣)

" ولقد وصف السياسة أنها الأعيب وكذب وأوحال ملوثة منتنة ووصل إلى قناعة أن السياسة مستتقع عفن، هكذا هي في الواقع، وهكذا تقدمها المدنية الحديثة لأن طرف جالها بأيديها" (٤) وهذا يوحي بهيمنة الغرب على سياسات الدول الضعيفة، وخاصة بلدان العالم الثالث.

ولقد أعلن النورسي أمام محكمة أفيون وحذر كل التحذير من الانقياد لقوانين وديساتير غير أخلاقية للمدنية السفهية، إنها قوانين جائرة وحشية كما هي في البلشفية، وحذر من الانحياز إليها تحت ضغوط أعدائنا وديساتيرهم، فليس هناك قانون في العالم كله ولا إنسان يملك ذرة من الإنصاف يكره الآخرين على قبول ما عندهم بترك ما عندنا" (٥)

(١) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ١٢٢.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٧٩.

(٣) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ٣٤٧.

(٤) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٧٠، ٥٩، ٥٨.

(٥) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ٤٦٧.

فالحل في نظر النورسي يكمن في نبذ تقليد أخلاقيات أوروبا، ونبذ التمسك بأذيال قيمهم ورفيقهم ونبذ الاستبداد، لأنه لا يأتي بالأمن والاستقرار .

ويخاطب من يدعوا إلى تلقف أخلاقيات المدنية الغربية في شتى المجالات بقوله:

" إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسراً إلى المدنية تسهياً لإدارة دفة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا جيداً أنكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد، لأن إدارة فئة من الفاسقين الفاسدين أخلاقياً والمرتابين في اعتقادهم وإيمانهم وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم، هو أصعب بكثير من إدارة ألوف الصالحين المتقين ونشر الأمن فيما بينهم " (١)

ويوضح النورسي أنه " لا يحصل الرقي والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم وبتثالثة فيما بينهم وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولا تتم هذه الأمور إلا بإتباع الأوامر المقدسة في الدين والثبات عليها من إلتزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته " (٢)

ولهذا فإن " معظم هؤلاء المدنيين (الذين تخلقوا بأخلاق الحضارة الغربية المادية) لو قلبت باطنهم على ظاهرهم لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير " (٣)

وذلك بسبب فقدان الحضارة الغربية بوصلة الاتجاه الذي يدها على الإيمان، ويكسبها ثوب العفة والفضيلة والرحمة والشفقة تجاه بني جنسهم، ولهذا يقول النورسي: " إن المدنية الحديثة قد أطلقت العنان لشهوات النفس وحظوظها غير آبهة بما يعرف بالافتقار الذي هو العزة والكرام بعينه، بينما الخسة والذل هما حقيقة ما يقوم به المسرفون المبدرون من سخاء ظاهري " (٤)

(١) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ١٨٦، ١٨٨.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٨.

(٣) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٨٥٥.

(٤) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ٢١٧، ٢٢٤. بتصرف.

حيث " أن الإسراف وعدم القناعة وأكل الحرام تتنافى مع الحكمة الإلهية، وأن الاقتصاد والقناعة تنسجم مع الحكمة الإلهية " (١)

ويوضح النورسي أن العودة إلى الذات والانطلاق من مقومات التصور الإسلامي والتخلق بأخلاقيات القرآن الكريم كفيل بأن يرقى بالأمة الإسلامية إلى خير مما عليه مدينة الغرب .

ويرى أن " القوى الخمس " التي توهم الإسلام للرقي المادي تتمثل في: " قوة الحقيقة الإسلامية والحاجة الملحة والحرية الشرعية والشهامة الإيانية والعزة الإسلامية " (٢)

بل ويذهب النورسي - وفق معطيات الوحي - إلى أبعد من ذلك ويتنبأ بظهور المدينة الإسلامية بقوله: " لما كانت مدينة أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى وعلى الحسد والتحكيم، تغلبت سيئات هذه المدينة على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل مؤثر قوي على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدينة آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب " (٣)

ومن ناحية أخرى فإن النورسي يرى أن تنحي أوروبا عن الدين كان سبباً رئيسياً في تفشي السفاهة والانحلال والإحاد، فيقول: " فضلاً عن العلل الثلاثة التي ولدتها المدينة وهي الحاجة الماسة والميل إلى السفاهة وكثرة الأمراض المذكورة بالموت، فإنه بتفشي الإحاد وتوغله فيها أدياً فجرعتها نوعاً من عذاب جهنم في الدنيا. " (٤) ومرجع ذلك " أن أوروبا قد نسيت رب كل شيء وخالفه، إذا أسندت أثار العالم البديعة إلى الأسباب الطبيعية. " (٥)

ومن أجل بعدها عن الدين والتعاليم السماوية انجرفت في تيار الرذيلة والأخلاق

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢١.

(٢) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٩٩، ٥٠٠.

(٣) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٠١.

(٤) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٣٨٠.

(٥) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ١٨٠.

الذميمة حتى أنها لا تغار على عرض أو شرف، بل أطلقت النساء للإباحية وأمتهن كرامتهن، فيقول:

" والمدنية السفهية أطلقت النساء من أعشاشهن، وامتهنت كرامتهن، وجعلتهن متاعاً مبدولاً بينما شرع الإسلام يدعوا النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن، فكرامتهن فيها وراحتهن في بيوتهن وحياتهن في دوام العائلة، فالطهر زينتهن، والخلق هيتهن، والعفة جاهن، والشفقة كماهن، والأطفال لهوهم... إن تكشف النساء دون قيد أصبح سبباً لتكشف أخلاق البشر السيئة وتناميها. " (١).

والنورسي يدير كاميراته على زوايا مختلفة من الحضارة الغربية للتقاط مواقع الظلم والقبح والانحراف في أخلاقياتها الذميمة.. ومظهراً ومبيناً البقع الرمادية والسوداء في جسد الحضارة الغربية..

والمهم، فإن النورسي أنطلق في موقفه هذا من فطرة سليمة وعقيدة خالصة، حرصاً منه على هوية أمته الثقافية والأخلاقية من الضياع، حيث أن التاريخ شاهد على مر العصور أن زوال الأمم وحضاراتها كان سببه البعد عن الله، والانحراف الأخلاقي، فما من أمة تمسكت بدينها الصحيح وأخلاقها القويمة إلا وارتقت وتقدمت حضارتها، وصدق الشاعر حين قال

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ولعل ذلك هو ما عبر عنه " رفاة الطهطاوي " بقوله: إن للتمدن أصليين:-

١- معنوي: وهو التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب... ويعني التمدن في الدين والشريعة.

٢- تمدن مادي: وهو التقدم في المنافع العمومية (٢).

إن النورسي لم يرفض أخلاق الحضارة الغربية الحديثة لأنها تعارض نظرية فكرية أو

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٨٧٤.

(٢) ا.د/ محمود عمارة: من مظاهر الحضارة في الإسلام، ص ٥، التوحيد بشيخ الكوم، المنوفية، ٢٠٠٦ م.

فلسفية يعتنقها كلا... ولكن النورسي يرفض هذه الحضارة التي تعفنت بالأخلاق الذميمة لأنها لا تتوافق ولا تتلائم، بل تتعارض وتتنافر وتتباعد عن صرح الأخلاق الإسلامية التي شيدها " المعصوم صلى الله عليه وسلم " وصاحب الأخلاق الكريمة، الذي وضح وبين أن دعوته جأت لتمام صرح الأخلاق الفاضلة، التي تتطلبها الطبيعة البشرية، وتلائم فطرتها، فقال:

" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (١).

(١) مسند الإمام أحمد: رقم (٨٥٩٥).

النورسي يرفع شعار (خذ ما صفاً ودع ما كدر)

المدينة الحديثة وأمة المعيارية:

إن المطلع على رسائل النورسي يجد أنها جاءت لتؤكد للناس وللمجتمعات أن الأمة الإسلامية أمة المعيارية، ويكاد أن يكون مفهوماً أن الأمة الإسلامية "بوسطيتها واعتدالها بميزان الشرع" هي أمة المعيار الذي وكل إليها أمر الشهادة على الناس والقيادة بهم بما تملك من قيم معصومة محفوظة في الكتاب والسنة.

والمعيارية في شخصية الأمة، والتي جاءت كليات رسائل النور تكشف عنها تعني:

أن الأمة الإسلامية في أفرادها ومجموعها تبقى بمأمن من التحديات، لأنها عند التزامها بقيمتها تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع، فالتحديات الفاسدة - من أوربا الفاسدة وغيرها - لا تستطيع في ظل تمسك الأمة بمعياريتها أن تذيب ثقافة الأمة، ولا أن تلغي هويتها، ولا أن تسيطر علي قيمها.

ويكاد يكون مفهوماً: أن التحديات الفاسدة إنما تمتد ابتداءً في داخل المجتمعات الفاقدة للمعيار ومركز الرؤية.

لذلك تتركز وسائل التحديات في محاولة إخراج الأمة عن قيمها المعيارية لتصبح مهياة لتقبل ما يلقي إليها دون القدرة على اختياره ومعايرته بالشكل المطلوب..

ومما يساعد على نجاح مسار المعيارية السليمة، هو تحصين النفس الإنسانية بمدرسة الإيمان، لأن الإيمان يخطط المسار، ويضع المنهاج، ويحول بين النفس وبين دواعي الانحراف بما توفرها لها من قيم فعالة تعالج ما قد يبتلى به الإنسان، وتعينه على المواجهات الضرورية، لإعادة شحذ الفاعلية وإستعادة بناء الذات، وإنهاء حالة الاسترخاء والكسل^(١).

ولذلك فإن النورسي يتعامل مع المدينة الغربية على أساس دستور (خذ ما صفاً ودع ما كدر) وفي ضوء هذا الدستور سيأخذ من الأجانب كل ما يعين على الرقي من علوم

(١) د/ أحمد عبد الرحيم السايح: ١٠١، د/ سامي عفيفي، قضايا معاصرة في فكر النورسي، ص ٢٤، ٢٥.

وصناعات، أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساؤها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة"^(١).

إذا فالنورسي من خلال دستورهِ المعيارِي يرشدنا أن نبتعد عن عادات المدنية الحديثة ومساؤها الأخلاقية، وفي المقابل يوجه أبصارنا إلى منافع هذه المدنية، وبصفة خاصة العلوم والصناعات التي كانت سبب في تقدمها .

ثم نراه يبرز الحكمة من أخذنا لهذه المنافع، لأنها أدوات نستطيع بها أن نحارب الجهل والفقر في حياتنا الداخلية، فيقول: " إن الأجنب يسحقوننا تحت تحكمهم المعنوي بسلاح العلوم والصناعات ونحن سنجاهد بسلاح العلم والتقنية، الجهل والفقر والخلاف الذي هو ألد أعداء إعلاء كلمة الله أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الأمامية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع، وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً، فأعظم وسيلة لإعلاء كلمة الله في زماننا هذا هو الرقي المادي"^(٢).

ولكن.. إذا كان النورسي يتخذ موقفاً انتقائياً من المدنية الحديثة الغربية، فما هو المعيار الذي على أساسه يتم الانتقاء ؟

يجيب النورسي بأننا سنأخذ من الحضارة الغربية ما يتوافق مع ثوابتنا الإسلامية، والشريعة هي المرتكز الذي على أساسه يتم التعامل مع منتجات الحضارة الغربية، فيقول:

" إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر ينبغي أن يكون أحد مجارية قسماً من أهل الشريعة كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع، لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وثنفت سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الأسن العفن خلاف المقصود، فلا بد

(١) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٦٨، ٥٣٠.

(٢) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٢٧.

إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة " (١)

ويبين النورسي أنه سوف يمنع مساوى المدينة الحديثة أن تتسرب إلى المجتمع المسلم مشاهراً في وجهها سيف الشريعة، وذلك حفاظاً على حدود الحرية الإسلامية الحصين، فيقول:

" سنمنع بسيف الشريعة مساوى المدنية وذنوبها من الدخول إلى حدود حريتنا ومدنيتنا حفاظاً على فتوة مدنيتنا وشبابها.

وينبغي لنا الإقتداء باليابانيين في المدنية، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم، وأخذوا بمحاسن المدنية من أوروبا، وحيث أن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام وتزدهر به، فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام " (٢).

ويتوافق " محمد الغزالي " مع النورسي في نفس الرؤية المعيارية الانتقائية التي نأخذها من الحضارة الغربية، وإلى أى مدى نقتبس منها، على أن نتمسك بأخلاقنا وتقاليدنا كما تمسك بها اليابانيون، فيقول:

" كان رجال التعليم والتربية في اليابان أيقاظاً عندما اتصلت بلادهم بأوروبا في القرن الماضي أو قل: كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعي الغربي، فقد أعدوا لكل جديد يقتبس مكانه فوق أرضهم ومساحته المادية والأدبية التي لا يعدوها وهمنوا يبصر حاد على الآثار المتوقعة حتى لا تفلت من أيديهم أو تتحرك بعيداً عن خططهم المرسومة..

ومع التزام هذا الخط الصارم، بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح فانتقلت الصناعة الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوريبيين في عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم.. إنهم فعلوا ولم يفعلوا.. وقادوا ولم ينقادوا..

(١) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٣٠ وانظر. د/ أحمد السايح: قضايا معاصرة،

ص ٢٧ (حيث يبين توافق النورسي وابن رشد في كيفية التعامل مع الحضارة الغربية والأخذ منها).

(٢) بديع الزمان / صيقل الإسلام / ص ٤٦٨.

أما العرب في الحضارة الحديثة فهي شعوب مستهلكة، تتنافس الدول الصناعية على إلهائها بالأدوات البراقة والمخترعات المريحة " (١)

وتوافق رؤية المعيارية عند الإمام " محمد عبده " مع ما ذهب إليه النورسي " بأن نأخذ بأسباب الحضارة الغربية والمادية التي لا تتعارض مع الدين الإسلامي الحنيف.

لذا لم يتردد " محمد عبده " من الدعوة إلى الاستفادة بالنظم الغربية ما دامت لا تخالف الشرع والعقل، ولهذا فهو لم يكن معبراً عن الفكر الغربي بدون وعي، وإنما عن إدراك بأن يأخذ ما ينفعه وطنه الإسلامي، ولم يخرج عن الإطار الديني الذي حدده الشرع في أصوله " (٢)

(١) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، ص ١٣، ٥١٣.

(٢) د / محمد ممدوح علي محمد العربي: الأخلاق والسياسة، ص ١٤٥، ١٤٧. (الهيئة المصرية للكتاب)

أسس المدنية الحديثة

في غمرة الهزائم التي توالى على الأمة الإسلامية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي إبان الحريين العالميتين، ومع شدة انبهار المهزمين والمغلوبين من أبناء الأمة الإسلامية بكل ما تقدمه المدنية الحاضرة من أفكار ومناهج وأساليب تنطوي على الكثير من السراب والوهم.

وفي أثناء تضارب وتناقض مواقف أهل العلم من أبناء الأمة من المدنية الحاضرة، فهم ما بين معجبين بها ومغرمين بتمجيدها وتقليدها.

وبين رافضين لها جملة وتفصيلاً وناكرين جميع محاسنها.

ولعل ما سجلناه على صفحات البحث سابقاً يبين أن الإمام النورسي حاول تعريف الأجيال بالوجه الحقيقي لهذه المدنية، منصفاً إياها ومفرقاً في الوقت نفسه بين محاسنها ومساوئها •

كما أنه ألقى بظلال وارف من التحقيق والتوضيح على الهدف الأسمى والغاية المثلى والدستور الأعلى والمقصد الأعظم الذي تهدف المدنية الحاضرة إلى تحقيقه، وتسخر كافة إمكاناتها وإنجازاتها من أجل تمكين مرتكزاتها وفرضها على العالم أجمع..

ولبيان ما انتهى إليه النورسي من ضبط محكم لأسس المدنية الحاضرة، نرى أن نورد عدداً من النصوص التي أودعها بياناً وتوضيحاً لتلك الأسس، حيث انه عنى بتأصيل القول في تلك الأسس والمرتكزات في عدد من مؤلفاته ورسائله القيمة، منها الكلمات (الكلمة الخامسة والعشرون) والمكتوبات (نوى الحقائق)

أما في كتابه "صيقل الإسلام" فقد زاد هذه الأسس توضيحاً وتحقيقاً وتأصيلاً، حيث قال ما نصه في معرض إجابته عن سبب رفضه المدنية الحاضرة: "قال أحدهم من المجلس: لم ترفض هذه المدنية؟ قلت: لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية: فنقطة استنادها هي (القوة) وهذه شأنها (الاعتداء) وهدفها وقصدها (المنفعة) وهذه شأنها (التزاحم) ودستورها في الحياة (الجدال والصراع) وهذا شأنه (التنازع) والرابطة التي

تربط المجموعات البشرية هي (العنصرية) والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين، وهذه شأنها (التصادم) كما نراه، وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي (تشجيع هوى المنفعة) وإثارة النفس الأمارة وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها، وهذا الهوى شأنه (إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً، فمعظم هؤلاء المدنيين لو أنقلب باطنهم بظواهرهم لوجد الخيال تجاه صور الذئاب والذئبة والحيات والقرود والخنازير، ولأجل هذا فقد دفعت المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة عموهة زائفة وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس" (١)

والتصفح لرسائل النور يجد أنه لم تخلُ جميعها من الإشارة إلى هذه الأسس بصورة مباشرة وغير مباشرة *

كما إن النورسي أولى كل واحد من هذه الأسس جانب التحقيق والتأصيل والتفصيل، مما يعبر عن عميق فهمه لهذه الأسس وما يترتب عليها من مسائل وقضايا تحتاج من الباحثين والمفكرين والمعنيين بالبحث والتنقيب فيها.

(١) بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٥٧.

أسس المدنية الإسلامية من المنظور النورسي

يعرض الإمام النورسي مرتكزات المدنية الإسلامية أو مدنية " القرآن " بوصفها المدنية الأساس والأم من جهة •

وبوصفها المدنية التي ينبغي للبشرية الاتجاه إليها والاحتفاء بها في ظل الظروف العالمية الراهنة من جهة أخرى •

ولهذا فإن النورسي يعقب نقده العلمي الرصين للمدنية الحاضرة بتقديم أسس المدنية البديل الأكمل والأشمل روحاً ومنهجاً ومضموناً ومالاً •

ومن خلال الإطلاع على " رسائل النور " للنورسي، نجد أنه تعرض بالإشارة إلى أهم الأسس التي تقوم عليها المدنية الإسلامية، وذلك في عدد من كتبه ورسائله (كالكلمات والمكتوبات) بالإيجاز وبصورة مركزة •

ولكن في كتاب " صيقل الإسلام " نجده قد تناول أسس المدنية الإسلامية بصورة أكثر تفصيلاً وتوضيحاً، فقال ما نصه: " أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها فهي التي ستكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم إن نقطة استنادها (أي المدنية الإسلامية) هي الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه العدالة والتوازن، وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها المحبة والتجاذب وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية هي الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية، وهذه شأنها الأخوة الخالصة والسلام والوثام والزود عن البلاد عند اعتداء الأجانب، ودستورها في الحياة التعاون، بدل الصراع، والجدال والتعاون من شأنه التساند والاتحاد، وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر وشأن الهدى رفع الإنسانية إلى مراقبي الكمالات •

فهي إذن تحدد الهوى، وتمحّد من النزعات النفسانية وتطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي

"^(١) وهذه هي أهم الأسس التي أودعها الإمام النورسي للمدنية الإسلامية والتي تدعوا إليها الشريعة الإسلامية وتحث عليها....

ومن خلال ما سبق يتضح أن النورسي لم ينظر إلى الحضارة الغربية بنظارة سوداء كما نظر إليها الرافضون، ولم ينظر إليها بنظرة وردية تجعله ينجرف وراء بريقتها بدون وعي • ولكنه نظر إليها بمنظار الشرع الوسطى المعتدل، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، فأستطاع أن يستوعب نشأتها وتطورها، وأن يتبين أصولها وأهدافها، الأمر الذي أتاح له متسعاً من الحرية الفكرية التي مكنته من وضعها في حيزها الحقيقي، وتسليط نظرات النقد البناء عليها دون تحيز أو افتراء، كل ذلك في إطار من الموضوعية والبعد عن الأحكام المسبقة.

كما أن النورسي رأى أنه ليس من العدل والإنصاف رفض هذه الحضارة رفضاً مطلقاً ولا قبولها قبولاً مطلقاً، لأن التطرف في كلتا الحالتين مضر، ولهذا اختار موقفاً وسطاً، أكد من خلاله أن المدنية الحاضرة ليست خيراً محضاً ولا شراً محضاً، وهو ما عبر عنه بقوله: " إن أوروبا اثنتان ". أوروبا النصرانية وأوروبا المادية..

ولعل أبرز ما يشد الانتباه في هذا النص هو الربط الوثيق بين الحضارة والدين وجعله قاعدة مهمة من قواعد فكره، ومرتكزاً أساسياً من مرتكزاته •

فهو يرى أن الجانب المضيء من الحضارة الغربية إنما إستفاض من النصرانية الحققة، أي من ذلك البصيص الخافت من الوحي الرباني الذي بقى عالقاً بالمسيحية، والذي زرع في الإنسان حب المعرفة وحب البشر والمحبة والإخاء والفضيلة وتسخير الكائنات لفائدة الإنسانية...

وخلاصة القول:-

أن النورسي اختط لنفسه طريقاً في التعامل مع الحضارة الغربية، ليصبح في مصاف المجددين والمصلحين أصحاب العقلية الهادفة المستنيرة، بعيداً عن المتشددین الذين يرفضون كل ما هو غربي وغير إسلامي، وبعيداً عن السذج الذين انبهروا ببريق الحضارة

(١) بدیع الزمان النورسي: صیقل الإسلام، ص ٣٥٩.

الغربية القشري، ورقصوا وهتفوا لتفاهاتها.

أما النورسي فإنه رأى أنه ليس من العدل والإنصاف رفض هذه الحضارة رفضاً مطلقاً ولا قبولها قبولاً مطلقاً لأن التطرف في كلتا الحالتين مضر، حيث أعلن قبوله التعامل مع الحضارة الغربية (ولكن بحذر) والأخذ منها ما هو نافع ويوافق مبادئ الإسلام ورفض ما وجده ضارياً وملوثاً لأنه يخالف تعاليم الإسلام وبيئة المسلمين، وكل ذلك يتم بميزان الشرع بعيداً عن الأهواء والرغبات.

وبهذا يتوافق النورسي مع كثير من المصلحين والمجددين، ومنهم "الإمام محمد عبده والمفكر محمد الغزالي".

ولعل أهم ما يميز موقف النورسي من الحضارة الغربية ما يلي: -

- تصفية ذاته من أي أحكام مسبقة، حتى يكون نقده لهذه الحضارة نقداً موضوعياً ثم إلمامه بموضوع النقاش من جميع جوانبه وزواياه، حتى تتضح له الرؤيا بأكبر قدر ممكن، وهذا ما دعاه لدراسة أسباب نهضة أوروبا، وكيف وصلت إلى ما هي عليه، والأسس التي قامت عليها، ورصده لزوايا مختلفة منها لالتقاط مواقع الظلم والقيح والانحراف في أخلاقياتها الذميمة، ومظهراً البقع الرمادية والسوداء في جسدتها.

- عدم حكمه على الحضارة الغربية بالجزافية والإطلاق، ولكنه قام بفرز ما هو صالح وقام بتجميد الضار، ويظهر ذلك جلياً من خلال محاورته للجانب الصالح في التعامل وهي أوروبا النصرانية، والتي اكتفى بالإشارة إليها في محاوره قصيرة دون تفصيل.

ثم محاورته المفصلة والتي لا تخلوا منها جميع الرسائل، وهي أوروبا التي ابتعدت عن الدين والأخلاق واستعبدت الناس بالأهواء والملذات والمنفعة، وتعفت بظلمات الفلسفة الإلحادية، وكل هذا من أجل تعريف الأجيال بالوجه الحقيقي بهذه المدنية منصفاً إياها، ومفرقاً في الوقت نفسه بين مساوئها ومحاسنها.

- سجل النورسي في رسائله أسس المدنية الحديثة، وأولى كل واحد من هذه الأسس جانب التحقيق والتأصيل والتفصيل، وألقى بظلال وارف من التوضيح لبيان الهدف الأسمى والغاية المثلى والدستور الأعلى الذي تهدف المدنية الحديثة إلى تحقيقه وتسخر كافة

إمكاناتها وإنجازاتها من أجل تمكين مرتكزاتها وفرضها على العالم أجمع.

ثم يعقب النورسي موقفه العلمي الرصين للمدنية الحديثة بتقديم أسس المدنية البديل والأكمل والأشمل روحاً ومنهجاً ومضموناً ومالاً، وهي المدنية الإسلامية.

وهذا يعبر عن عميق فهمه لكل من أسس المدنية الحديثة... وأسس المدنية الإسلامية وما يترتب عليهما من مسائل وقضايا تحتاج من الباحثين والمفكرين والمعنيين البحث والتنقيب فيها.

- إن أبرز ما يشد الانتباه في موقف النورسي من الحضارة الغربية هو الربط الوثيق بين الحضارة والدين، وجعل الدين قاعدة مهمة من قواعد فكره ومرتكزاً أساسياً من مرتكزاته.

المبحث الرابع موقف النورسي من علم الكلام

ويشمل على الموضوعات التالية:-

رؤية النورسي لعلم الكلام.

تجديد العقائد.

أهمية العقيدة في منهج النورسي التجديدي.

موقف النورسي من علم الكلام ودعوته للتجديد.

النورسي وتجديد علم الكلام.

موقف النورسي من علم الكلام

رؤية النورسي لعلم الكلام:

" ترتبط رؤية النورسي لعلم الكلام بقضية الإصلاح التي اشترك فيها مع زعماء الإصلاح المحدثين في العالم الإسلامي مثل " محمد عبده وأبن باديس ومالك ابن بني ومحمد إقبال " وغيرهم

وتنطلق هذه الرؤية عند النورسي من معايشة القرآن الكريم وفهم آياته البينات واستبطان حقائقها في عالم الأفاق والأنفس، ليحقق نوعاً من التوازن في فكر الإنسان المسلم...

والواقع أن النورسي لم يهتم فقط بإصلاح علم الكلام، ولكن اهتمامه كان منصباً في البداية على تغيير ذاتية الفرد والمجتمع، وتنوير عقيدة كل منهما، من أجل خلق ذاتية الأمة وبعدها يمكن إصلاح أي علم مهما كان اسمه.

وإذا كان تجديد علم الكلام مرتبط بتحديد العقائد الإيمانية، فالأولى من تجديد العلم ذاته هو تجديد العقائد التي يعبر عنها هذا العلم.. أي الذي سيكون العلم خادماً لها.

ولكن.. كيف تتجدد العقائد الإيمانية، مع أن العقائد ذاتها بوضعها معبرة عن نصوص نطق بها الوحي أو عبرت عنها السنة النبوية الشريفة ثابتة " (١) فكيف نجدها إذن ؟

تجديد العقائد:-

إن المقصود بتجديد العقائد:- هو تجديد هذه العقائد داخل النفوس بإصلاح بواطنها

(١) د/ عادل محمود بدر: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، المؤتمر السادس، ص ٢٧٠، ٢٧١ بحوث عربية، سوزلر.

عملاً بقول الله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }^(١) وهذا المبدأ الذي رسخه الوحي القرآني يعني أن بداية التجديد والإصلاح تكون من الداخل وليست من الخارج، إنها البداية من الذات الحاملة لعقائد الإيـان، فإذا لم تتجدد فلا حاجة بتجديد علوم يضيـع هدفها سدى.

ومن هنا سقط الفكر الإسلامي في دائرة التقليد، لأن العقائد تحولت إلى رسوم دون أن تدق أبواب الجوارح الداخلية للإنسان فتجعل منه خليفة الله ظاهراً وباطناً، ومن حيث كونه مرآة عاكسة للصفات الربانية^(٢) .

إذا فرؤية النورسي لعلم الكلام كان يهدف بها أولاً إلى تجديد حيوية العقيدة في القلوب والأفكار وفي الداخل وفي الشعور، وعندئذ تنبثق العلوم في منظومة حيوية تنطق بها تحمله العقيدة الصحيحة من حيوية وقدرة على إحداث الانطلاق والتغيير.

أهمية العقيدة في منهج النورسي التجديدي

إن أهمية العقيدة في منهج النورسي التجديدي قائمة على أن العقيدة أساس كل بناء وصلاحها مؤذن بصلاح الأحوال جميعها، كما أن الخلل فيها يؤدي إلى الضياع والخذلان في شتى مناحي الحياة، لذا جعل قضية الإيـان هي القضية الأساسية التي كرس لها حياته وفكره، ووظف لها كل طاقاته فيقول: " إن دعوتنا هي الإيـان.. وإن زماننا هذا هو زمان خدمة الإيـان، ووظيفتنا هي الإيـان، وخدماتنا تنحصر في الإيـان.

وقد آخذ النورسي من رسائل النور وسيلة لإنقاذ أسس الإيـان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيـان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيـان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة^(٣) .

ويبرز النورسي أهمية العقيدة من خلال تأييده لقول الإمام الرباني بأن الكشف عن

(١) سورة الرعد: آية رقم (١١).

(٢) د/ عادل محمود بدر: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ٢٧١. بتصرف.

(٣) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ١٠٥ وانظر د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، النورسي وتجديد دراسات العقيدة الإسلامية، ص ٢٣٧، ٢٣٨. بتصرف.

حقائق الإيمان أفضل من البحث عن الأذواق والكرامات كما هو شأن الصوفية حيث " إن انكشاف مسألة صغيرة من مسائل الإيمان هو أفضل في نظري من مئات من الأذواق والكرامات " (١)

حيث أن مباحث العقيدة تتعلق بأخطر قضية في حياة الإنسان وهي قضية الإيمان، هذا الإيمان الذي يسموه " إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم " (٢)

ونلمس إدراكه لأهمية العقيدة من خلال التنبيه إلى وظيفته ورسالته، فهو يقول لمن يظن أنه صاحب طريقة صوفية " ليس هذا العصر بعصر تصوف وطريقة إنها هو عصر إنقاذ الإيمان وإنما إنقاذ الإيمان يكون بإحيائه في قلوب المؤمنين وبالتصدي للشبهات " (٣)

وترجع أهمية العقيدة عند النورسي لما لها من آثار، وارتباطها بالقيم الأخلاقية والأنماط السلوكية •

لهذا دعا النورسي إلى تخلق المسلمين بأخلاق الله تعالى، وأكثر من التذكير بجلال الله وجماله وإحسانه لعباده وحكمته في خلقه وكمال، ليلفت نظر المسلم إلى التخلق بتلك الأخلاق الإلهية والتخلي بها تدل عليه، ولا يكفي كما يقول أن نتعلم أن الله حكيم، ولا ينبغي الحكمة

ولا نتجللها، كما لا يكفي أن نعلم أن الله رحيم ولا نترحم •

ولهذا ربط النورسي الإيمان بآثاره النفسية والواقعية، وأعاد وشائج القربي والتلاحم للجزئيات العقيدة.

وترجع أهمية العقيدة عند النورسي إلى ما يمدده الإيمان بالله للإنسان بنظرة مميزة للعالم

(١) بديع الزمان النورسي: اللغات، ص ٥٧٤.

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٣٤٨.

(٣) / عبد الوهاب بوخلخال: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، موقف النورسي من علم الكلام،

فبدلاً من النظرة الموحشة المتشائمة التي يولدها الإلحاد وتولد لدى الغافلين الضالين، نجد أن المؤمن ينظر إلى الكون ويراه " كتاباً بليغاً كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسقة عمرها الرحمن الرحيم، ومعرضاً أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته " (١)

كما أن الإيمان بالله يزود المؤمن بإجابة شافية على تلك الأسئلة المحيرة التي حارت فيها الفلسفة والإنسانية وضلت فيها الأمم، فهذا الإيمان: ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة

..

من أين يأتي سيل الموجودات، وقافلة المخلوقات ؟

وإلى أين المصير ؟ ولم جاء ؟ وماذا يعمل ؟

ويسر التوحيد بتحقيق مزايا الكون وكمالاته، وتدرك الوظائف الإلهية للموجودات، وتتقرر نتيجة خلق المخلوقات وتعرف أهمية المصنوعات، وتبرز ما في هذا العالم من مقاصد إلهية " (٢) والإيمان يحدث توازناً في عقل الإنسان وعواطفه: فالعقل الضال الذي يسير بغير هدى ويتخبط في الضلال يصبح آله تعذيب " ووسيلة إزعاج بما يجمع من آلام الماضي الحزين ومخاوف المستقبل الرهيبة، بينا الإيمان يعالج هذه الأزمة الداخلية بمعنى التوحيد وأعماله القلبية.

والعقيدة لها أثر كبير ووظيفة اجتماعية عظيمة لما تقوم به في تقوية الروابط الاجتماعية وتوثيق عري الوحدة والمودة بين أفراد المجتمع، لأن " الإيمان بعقيدة واحدة يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع " (٣) ولهذا فإنه نظراً لأهمية العقيدة " فإنه ينبغي لهذا العصر من مجدده له شأنه ليقوم بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة والسياسة الإسلامية ولكن أهم تلك الوظائف الثلاث، هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق

(١) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٥٢٧.

(٢) بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ص ١٤.

(٣) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٥. وانظر. د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٥٥، ٢٥٤.

الإيمانية فهي أجل وأعظم تلك الدوائر الثلاثة..

لذا تبقى دوائر الشريعة والحياة الاجتماعية والسياسية في الدرجة الثانية والثالثة بالنسبة إلى الإيمان .^(١)

ونستطيع أن نقف على أهمية العقيدة عند النورسي وربطها لديه بالحركة التجديدية الإصلاحية من خلال عرض ما ذكره الأستاذ "إحسان قاسم" لحاجة المجتمع التركي إلى تجديد العقيدة في القلوب وتفعيل دورها في المجتمع لتؤدي وظيفتها في جميع مناحي الحياة ومواجهة المد الإلحادي فيقول: " في تلك السنوات الحالكة كان الإسلام يتعرض لزلزلة كبيرة في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والأعلام التي تملكها، وبأفلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتاب والصحفيين، في الوقت الذي كتمت فيه أفواه دعاة الإسلام وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم .

لذلك فقد تعرضت أسس الإسلام وأصوله ومبادئه الأولية إلى الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشداً وموجهاً .

لذلك فقد قرر الأستاذ سعيد النورسي أن يحمل تلك الأمانة الكبرى على كاهله، وأن يحاول إنقاذ الإيمان في تركيا...

نعم. تلك كانت هي المسألة الرئيسية التي لا تتحمل التأجيل أو التسويف أو الاهتمام بأي أمر عداها "^(٢)

(١) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ١٩٦.

(٢) إحسان قاسم: النورسي حياته وآثاره، ص ٧١. د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٣٨

موقف النورسي من علم الكلام ودعوته للتجديد

إن المنهج الكلامي وإن كان قد لبي حاجات المجتمع في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وقابل التحديات التي واجهت الأمة في فترة من التاريخ، فإنه لم يلبث أن أغرق في الجدل وغرق في مناهج الفلاسفة ومصطلحاتهم، ومن ثم لم يوفق في عرض قضايا العقيدة وإيجاد القناعة بها^(١)

" لهذا فإنه لم يقنع علم الكلام القديم روح النورسي المتأججة بنار الإصلاح والتجديد، لأن علماء الكلام رغم اعتمادهم على الوحي الإلهي، إلا أنهم عجزوا عن الفهم الحقيقي لآياته، بما ينكشف عنه من روح القناعة والاطمئنان، فانغلق علمهم عليهم، وصار علم كلام علماء مغلقاً، يعتمد اصطلاحياً على قواعد خاصة بأصحابها، تترد في جوهرها إلى صراع عصور ماضية"^(٢).

وقد أشار المتكلمون أنفسهم إلى ذلك وعبروا عن خيبة أملهم في الكلام كمنهج برهاني يقنع الخاصة، ويبعث اليقين والطمأنينة في نفوس العامة، وعدم جدوى الكلام ونفعه .
" فالشهرستاني " يعبر عما شاهده من حيرة كثير من المشتغلين بالمناهج الكلامية فيقول:-

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم
و" الغزالي " في بحثه عن اليقين، وبعد أن خبر الكلام تعليماً وتعليماً وتالياً يقول:-
" فصادفته علماً وفياً بمقصوده غير واف بمقصودي "

(١) د/ أحمد محمد الجليل: أعمال مؤتمر العوالة والأخلاق، المؤتمر السادس لبيدع الزمان، ص ٢٣٩.

(٢) د/ عادل محمود بدر: أعمال مؤتمر العوالة والأخلاق، المؤتمر السادس لبيدع الزمان، ص ٢٦٢.

ويذهب الغزالي إلى القول: بأنه " لا يحصل عن هذا العلم ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق "

ويعبر " فخر الدين الرازي " عن عدم قناعته شخصياً بمنهج المتكلمين وكيف أنه أضع عمره سدى في البحث عن اليقين من هذا الطريق فيقول:-

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال.

وأرواحنا في وحشة من جسوننا وغاية دنيانا أذى ووبال.

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا.

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن "

وقد كانت هذه الأقوال والاعترافات وأمثالها عاملاً هاماً من عوامل الشك في قيمة الكلام الإيجابية، من حيث تثبيت العقيدة وترسيخ اليقين^(١).

ولم يلبث علم الكلام أن أصابه الجفاف وأخذ يتجمد، هذا بالإضافة إلى غياب الوظيفة الدفاعية لعلم الكلام، والتي جعلته ينفصل عن الواقع، ويهمل التحديات الواردة على العقيدة الإسلامية وأصبحت سائر كتب التوحيد المؤلفة تتلهى بالشرح والتهميش والتحشية عن القضية الحقيقية التي هي مواجهة ما يجد من الشبهة الموجهة للعقيدة الإسلامية، أو على أضعف الإيمان تجديد أساليب وطرق الردود على الشبهة القديمة ذات العناصر المستديمة بما يناسب أوجه الإقناع للعقلية المتجددة

وقد عم هذا الجمود الذي أصبح عليه علم الكلام كلاً من المضمون والأسلوب، فنجد أنفسنا أمام المناقشات نفسها، ومع الأدلة نفسها رداً على الخصوم ذاتهم كالمعتزلة والفلاسفة وسواهم من الذين انقروا^(٢)

الأمر الذي دفع ابن خلدون إلى القول: " ينبغي أن يعلم أن العلم الذي هو علم الكلام

(١) د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، المؤتمر السادس لبيدع الزمان، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) أ/ عبد الوهاب بوخلخال: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، المؤتمر السادس لبيدع الزمان، ص ٢٨٨.

غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفوننا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير من إيهاماته وإطلاقه.

ورغم النتيجة التي وصل إليها ابن خلدون بعد تلخيصه لمسيرة علم الكلام، وهي كون هذا العلم قد فقد قيمته، ولم تعد له حاجة لانتهاء أهل البدع وشبهاتهم، فإن النورسي يذهب إلى عكس هذه النتيجة تماماً، فيرى أن علم الكلام أو علم العقيدة من أوكذ العلوم في هذا العصر لأن "الضروريات الدينية التي لا مجال فيها للاجتهاد لقطيعتها وثبوتها، والتي هي في حكم القوت والغذاء قد أهملت في العصر الحاضر، وأخذت بالتصدع، فالواجب يحتم صرف الجهود وبذل المهمة لإحياء هذه الضروريات وإقامتها" (١)

ويرى النورسي أن (الملحدة والمبتدعة) لم ينقرضوا، بل أن العصر الذي يعيش فيه عصر الإلحاد والفلسفات المادية التي تهدد حقائق الإيآن (٢).

ومن ناحية أخرى يبين النورسي "أن العصر الذي يعيش فيه قد جهدت به الدراسات الكلامية، وفقدت العقيدة أثرها في نفوس الناس، كما أن التحديات التي كان يواجهها الفكر الإسلامي لم يعد يفيد معها أسلوب الكلام القديم، بل كانت في حاجة إلى أسلوب جديد منطقي في أساسه، وعملي في أدلته، وواقعي في معالجته، ومنسجم مع روح العصر ومعبر عنه بأسلوب واضح قريب إلى العقول جميعاً" (٣).

ويقول النورسي "إن قسماً من مصنقات أغلب العلماء السابقين والكتب القديمة للأولياء الصالحين يبحث عن ثمار الإيآن ونتائجه وفيوضات معرفة الله سبحانه وتعالى، ذلك لأنه لم يكن في عصرهم تحد واضح ولا هجوم سافر لجذور الإيآن وأساسه، إذ كانت تلك الأسس متينة وورصينة، أما الآن فإن هناك هجوماً جماعياً منظماً عنيفاً على أركان

(١)، بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٥٦٢، ٥٦٣، وانظر د/ أحمد محمد جلي: مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٤٠.

(٢) عبد الوهاب بوخلخال: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٨٩.

(٣) د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، المؤتمر السادس لبديع الزمان، ص ٢٤٠.

الإيمان وجذوره، ولا تستطيع تلك الكتب التي كانت تخاطب المؤمنين فحسب أن تقف أمام هذا التيار القوي ولا أن تقاومه وتصده" (١)

ومن خلال ما سبق يتضح أن النورسي كان على قناعة بأهمية علم الكلام أو العقيدة، وأن قناعته هذه لن تأتي ثمارها إلا من خلال تجديد هذا العلم (علم الكلام) وصياغته بما يتواءم وتحديات الواقع وحاجات العصر وتفعيل وظيفته بشقيها، إحياء الإيمان .. ورد الشبهات.

وما يدعم أن النورسي كان مدركاً لضرورة تجديد علم الكلام، تصريحه بما يدل على أنه كان واعياً بهذه الضرورة أثناء كتابته لرسائل النور والتي يعتبرها علم كلام حقيقي أو على الأقل تمهيداً لإنشاء علم كلام حقيقي يتجاوز جميع ما كتبه السابقون على اختلاف مسالكهم ومشاربهم.

يقول- مجيباً على طلب أحد تلامذته -: " تذكرون في رسالتكم رغبتكم في تلقي درس في علم الكلام مني،.. أنتم يا أخي تتلقون ذلك الدرس فعلاً، فما استنسختموه من (الكلمات) دروس منورة لعلم الكلام الحقيقي "

فقد قال علماء محققون كالإمام الرباني: سيبين أحدهم في آخر الزمان علم الكلام- أي المسائل الإيمانية الكلامية لمذهب أهل الحق - بياناً جلياً، بحيث يفوق على جميع ما كتبه أهل الكشف والطريقة الصوفية، فيكون وسيلة لنشر تلك الأنوار، حتى أن الإمام الرباني قد رأى نفسه ذلك الشخص.

فأخوك هذا العاجز الفقير الذي لا يذكر بشيء لا يمكنني أن أدعي - بما يفوق حدى ألف مرة- أنني ذلك الشخص المنتظر، إذ لست أهلاً لأن أكون ذاك من آية ناحية كانت..

ولكنني يمكنني أن أقول: أنني أظن نفسي خادماً لذلك الشخص المنتظر، أهيم الميدان لمجيئه وجندياً من جنود طلائعه " (٢)

(١) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ١٠.

(٢) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٧٥. وانظر. عبد الوهاب بوخلخال، أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٩٢.

النورسي وتجديد علم الكلام

"لقد أدرك كثير من المصلحين ما انتهى إليه علم الكلام من جمود، وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده، فانبري بعضهم يريدون أن يعودوا إلى سالف عهده حامياً للعقيدة من كل تشويش، بادئين بإعادة ربطة بتحديات الواقع وحاجات العصر، فكان الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس ووحيد الدين خان ومصطفى صبري وجاءت جهود النورسي أيضاً ضمن هذا المسار"^(١) وأعد نفسه لتحمل هذه المسئولية إعداداً علمياً متميزاً فخبّر الكلام ومدارسه، ووقف على مصطلحات المتكلمين وأفكارهم.

"والنورسي يعلن تقديره لعلم الكلام، وثنائه على جهود علمائه، ولكن في الوقت نفسه نقد هذا العلم وكشف عن قصوره..

فالنورسي كان على معرفة وثيقة بهذا العلم ودقائقه، إذ درس الكلام وأستوعب منهجه وقضاياها، ويتضح ذلك جلياً من خلال رسائله، إذ نجده يستخدم المصطلحات الكلامية مثل: إبطال الدور والتسلسل والمحال وواجب الوجود وغيرها من المصطلحات الكلامية •

كما أنه أستخدم بعض أدلة الكلام مثل: دليل التمانع ودليل الحدوث والإمكان، ولكنه حين أستخدم دليل التمانع تميز على المتكلمين بأن جعله دليلاً يقينياً لا ظنياً كما هو الحال عند المتكلمين أما دليلي الإمكان والحدوث فقد أشار النورسي إلى أنها دليلان تشعبا من القرآن ولكن البشر أفسداهما فأصبحا جدليين عقيمين مليئين بالشكوك والأوهام"^(٢).

ونرى النورسي يعلن صراحة أن رسائل النور يمكن أن تكون مصدراً (لعلم كلام جديد) من شأنه أن يقى المسلم من مزالق الأفكار الفلسفية الضارة، وأن ينقل المسلم من

(١) عبد الوهاب بوخلخال: أعمال مؤتمر العولة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولة والأخلاق، ص ٢٤١.

دائرة المعرفة المجردة إلى ميدان السلوك الذي يمتزج فيه العقل مع القلب، أو الفكر مع الوجدان، ولهذا يقول متحدثاً عن بعض رسائله: - " فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية، بل يمكن أن يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والإيضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لرد ضلالات أفكار هذا الزمان.

بل يمكن لمن اختلط عقله بقلبه أو التحق قلبه بعقله المنتشت في آفاق الكثرة أن يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينة أمينة، يسلك فيها تحت إرشاد القرآن..

كيف لا وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو إلا من فيض القرآن الكريم "

إن هذا النص بالغ الدلالة في التأكيد على وعي النورسي بالقصور الذي طرأ على علم الكلام في صورته القديمة، وكذا ضرورة إنشاء علم كلام جديد يتناسب مع الظروف المستجدة *

ونلمس هذا خصوصاً عند قوله "... وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لرد ضلالات أفكار هذا الزمان"

إذاً فالمطلوب إيجاد علم كلام جديد سماته القوة والرصانة والقدرة على الوفاء بحاجات العقل والقلب فيمزج الفكر بالوجدان تحت إرشاد القرآن الكريم " (١).

والمتصفح لرسائل النور يجد أنها توميء إلى إبراز هدف النورسي الأول من بين أهدافه لتجديد علم الكلام أو العقيدة، وهو تفصيل الأهداف القرآنية، وشرح حقائق الإيمان ومعرفة الخالق الصانع، وهي تعبر عن مدرسة حياتية إيمانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعصر النبوة، حيث كان الوحي في بؤرة الشعور، وكانت الحياة ترجمة له دون مذهبية علمية، ولأن ذلك هي رؤية الرسائل، فإن الإصلاح ينصب على كل ما هو إسلامي..

ولهذا لم تكتف بشرح حقائق القرآن حسب إدراك العصر وفهمه فقط، بل إنها نهجت بشرح القرآن على ضوء العلوم بضرب الأمثلة على ذلك، وبإيضاح أن كتاب الكون الذي

(١) بديع الزمان: المشوي العربي، ص ٢٠٦.

يكون القرآن ترجمته الأزلية يتعلق بمنظومة العلوم جمعياً، الذي يعد الإسلام جوهرها •
ورسائل النور بهذا أثبتت أن الحقائق القرآنية تتطابق مع الحقائق الكونية، ومن ثم فقد
حثت الرسائل على قراءة كتاب الكون عندما أشارت إلى أن حروف كتاب الكون وآياته
تشكل منابع الحقائق القرآنية.

فالنورسي باعتماده الكامل على القرآن الكريم، قد عمد إلى البساطة والشمول، فخلص
علم الكلام من تجريده النظري المعقد الذي لا يفهمه إلا الخواص، فحوّله من علم مغلق
إلى علم مفتوح، ومن هنا عبر عن حقائق التوحيد ودقائق العقيدة الإسلامية بشكل لا
يفهمه المسلم وحسب بل يعايشه ويعانيه قلباً ووجداناً، لأنها صارت حاضرة فوق صفحة
الكون، فهو منهج قرآني شامل يبسط الغفلة والظلمة ويظهر أنوار التوحيد باستخدام
العلم، وهو بهذا لا يؤسس علماً للكلام فقط، بل ويضع الرؤية الشاملة للوجود ككل " (١)
" وبدلاً من الكلام، استخدام النورسي أسلوب القرآن في عرض مسائل وجود الله
تعالى ووحدانيته، ومسائل النبوة والآخرة والقضاء والقدر بشكل واضح جلي، يخاطب
قلب الإنسان وفكره وعقله وخياله، بل جميع لطائفه معاً، ولا يمحصر الكلام في العقل أو
الذوق، بل ويورد أمثلة مادية من واقع المرء وبيئته، من النباتات والحيوانات والنجوم ومن
النفس الإنسانية •

وقد أطلق بعض الدارسين على الطريق الذي أتبعه النورسي بأنه علم كلام جديد أو
علم كلام قرآني مبني على القرآن ويستقي من القرآن المنهج والمصطلح •

بينما يذهب كاتب آخر إلى أنه وإن كان لا بد من إطلاق مصطلح الكلام على منهج
النورسي فيجب تقييده بأنه علم كلام من نوع خاص يتميز عن علم الكلام التقليدي بأن
منطلقة القرآن الكريم، وأن الاستدلال فيه لا يعود للعقل فحسب بل ينضم إليه مخاطبة
القلب " (٢)

(١) د/ عادل محمود بدر: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ٢٤١، ٢٤٢.

" وبهذا المنهج استطاع النورسي أن يحول قضايا العقيدة إلى قضايا حية، يتفاعل بها المسلم ويتفاعل معها، ويكون لها تأثير على سلوكه ورؤيته للكون وتقييمه للأحداث والمواقف.

وبهذا كان النورسي جديراً بانشغال الباحثين لدراسة آراؤه الكلامية، وجديراً بأن يعد - كما يقول الأستاذ محسن عبد الحميد - من أكابر المجددين ليس في العصر الحديث فحسب، بل في تاريخ الإسلام ^(١).

وإن كان من الغريب أن بعض الذين تحدثوا عن جهود الإصلاح في مجال علم الكلام لم يشيروا إلى جهود النورسي، على الرغم من سبقه الزمني لبعض المصلحين، وعلى الرغم من وضوح رؤيته التجديدية.

وخلاصة القول:-

أنه تتلاقى رؤية النورسي لعلم الكلام وتجديد العقيدة في النفوس، وربطه بقضية الإصلاح مع زعماء الإصلاح المحدثين في العالم الإسلامي.

ونظراً لأهمية علم الكلام أو العقيدة وحاجة المجتمع التركي للعقيدة الصحيحة فقد حمل النورسي على عاتقه بتحقيق هذا المطلب، بالكشف عن حقائق الإيمان وإحيائه في القلوب، والتصدي للشبهات، مع ربط العقيدة بالقيم الأخلاقية والأنماط السلوكية، من أجل تفعيل دورها في المجتمع، ولكي تؤدي وظيفتها في جميع مناحي الحياة ومواجهة المد الإلحادي.

وقناعة من النورسي بأهمية علم الكلام، رأى أن قناعته هذه لن تأتي ثمارها إلا من خلال تجديد هذا العلم وصياغته بما يتواءم وتحديات الواقع وحاجت العصر وتفعيل وظيفته بشقيها: إحياء الإيمان في القلوب... ورد الشبهات.

ومن أجل تحقيق ذلك نرى أن النورسي قام بأهم أمرين:-

- تنقية علم الكلام من التعقيدات اللغوية، والتي يصعب على العامة فهمها، ثم تنقيته

من المصطلحات التي اقتبسها علماء الكلام قديماً من الفلسفات اليونانية، وذلك من أجل تحويل مسار علم الكلام من علم مغلق... إلى علم مفتوح، ومن علم معقد... إلى البساطة والشمول.

- تفصيل الأهداف القرآنية حسب إدراك العصر وفهمه، وعلى ضوء العلوم بضرب الأمثلة وشرح الحقائق الإيمانية ومعرفة الخالق، ثم قيامه بإثبات أن الحقائق القرآنية تتطابق مع الحقائق الكونية وأن حروف كتاب الكون وآياته تشكل منابع الحقائق القرآنية.

ولعل اعتماد النورسي الكامل على القرآن جعل كثير من الباحثين والدارسين والمختصين أن يطلقوا على محاولته التجديدية " بعلم كلام جديد " أو " علم كلام قرآني " .

المبحث الخامس موقف النورسي من التصوف.

- ويتضمن على الموضوعات التالية:-
- موقع التصوف في المشروع الإصلاحى عند النورسي.
 - رؤية النورسي للتصوف.
 - موقف النورسي من نظرية وحدة الوجود.
 - موقف النورسي من مفهوم الولاية.
 - موقف النورسي من إسقاط بعض المتصوفة للسنة النبوية.
 - النورسي ينتصر للطريقة.
 - النورسي ورؤيته التجديدية للمنهج الصوفي.

موقف النورسي من التصوف

موقع التصوف في المشروع الإصلاحى عند النورسي:

لقد أدرك النورسي طبيعة المرحلة التي تمر بها تركيا وما تستدعيه من جهد فكري واطلاع واسع على تطور العلوم الحديثة، لذلك قام بعملية مراجعة كبرى لرصيد الأمة من العقيدة والشريعة وفق نظرة شمولية نقدية، وتخطيط هادىء ورسين من أجل إنقاذ الإيمان وتخليص الإسلام من التشوية.

فلاحظ النورسي (وهو رجل المرحلة): أن التصوف الذي كان قائماً على تربية الروح وتطهير النفس الإنسانية وتجسيد القيم الإسلامية الرفيعة، أصبح في العصور المتأخرة أسرع الميادين في الثقافة الإسلامية تعرضاً للانحلال، وعاملاً من عوامل التخلف، بل إن بعض الطرق الصوفية تحولت في أغلب الأحوال إلى مراكز لابتزاز أموال الأتباع والمريدين، وإلى أبراق لمحاربة ما تبقى من العلوم العقلية والعلمية.

وهكذا انفصل الفكر عن الواقع، والإسلام عن الحياة، وفقد المجتمع الإسلامى شخصيته المتوازنة، وأستسلم للنفس الأمارة بالسوء عندما خرج عن هدى القرآن والسنة، وأتبع الفلسفات الإشراقية والحلولية والمادية والعلمانية....

فأصبح بعض دعاة التصوف (خاصة قبيل مرحلة الاحتلال الأوروبى) معاول الانحراف والهدم، واصطبغ الدين بصبغة الجهل والتخريف، وتفضيلهم التقليد على الاجتهاد والابتكار والاتجاه إلى الشعوذة والتدجيل، فكانت النتيجة أن يرمى الجيل الجديد من الشباب المسلم في أحضان الثقافة المادية والعلمانية...

لذلك لاحظ النورسي إلى احتياج عصره إلى ما يثبت حقائق الإيمان وإعادة ربط التصوف بالحياة من أجل حل الأزمت التي لحقت بالمسلمين فكراً وممارسة، انطلاقاً من

قاعدة إيمانية صلبة تحفظ للأمة توازنها أمام مغريات الحضارة المادية" (١).

ولهذا يقول النورسي: "إن هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقه، وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان"

ويبين أنه لو كان الشيخ "عبد القادر الكيلاني والشاه النقشبندي والإمام الرباني، وأمثالهم من أقطاب الإيمان (رضوان الله عليهم أجمعين) في عصرنا هذا لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية، لأنها منشأ السعادة الأبدية، وأن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي.

نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف" (٢)
 "لقد نهض النورسي برمالة التجديد، وذلك عندما وجد المدنية المعاصرة قد خرجت بالإنسان عن فطرته الطبيعية، وأورثته صفات وأخلاقيات أبعدته تماماً عن الاعتدال والفضيلة، وتبلدت لديه مشاعر الرحمة، وتمجرت عواطفه تحت تأثير العناء اليومي الذي سببته المدنية الصناعية والذي كان من نتائجها القلق النفسي وفقدانه لشهية الحياة، ونزوع متزايد نحو البهيمية والهروب نحو المجهول •

فالبشرية اليوم تعاني من أزمة معرفية عميقة، وفقدان لبعض الأخلاق والقيم الإلهية فأصبحوا في أمس الحاجة إلى إرشاد روحي ودعوة إلى الله...

ولكل هذه الأسباب مجتمعه، حرص النورسي على أن يكون التصوف الذي يستعان به في هذه الفترة (الإصلاحية التجديدية) هو الذي يحرص على الالتزام بأحكام الشريعة، وهو الذي يقاوم البدع، والضلالات التي علقت ببعض أهله، وهو التصوف الذي يجعل من أهدافه بناء الإنسان ليكون إيجابياً مهتماً بقضايا أمته، مسهماً في ترقيتها، غير ناكص عن أداء واجبه نحوها ولا متقهقر، أو لائذ بكهوف فكرية يحتمي بها من تبعات المدافعة

(١) د/ محمد الصمدي: تجديد التصوف عند النورسي ص ٦٧٥، ٦٧٤ مؤتمر العدالة، استانبول - تركيا

٢٠٠٧م

(٢) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٧٩ وانظر د/ محمد الصمدي: أعمال مؤتمر العدالة،

ص ٦٧٥ ...

(١) د/ فردوس أبو المعاطي المرسي: العدالة والتصوف من خلال رسائل النور، ص ٦٦٢، ٦٦٣، مؤتمر العدالة، استانبول - تركيا، ٢٠٠٧ م بتصرف.

رؤية النورسي للتصوف

لا شك أن النورسي قد عرف التصوف معرفة تامة وخبر أصوله وخاض بعض تجاربه وقرأ لعمالقة التصوف وتأثر بهم وشهد بإيجابيات التصوف التي تخدم الإيمان وتدعمه، ووقف على مزالق الطرق الصوفية ومخاطره.

وقد كان للطريقة النقشبندية أثر كبير عليه إذ أستقى منها كثيراً من المصطلحات واستفاد من منهجها التربوي " (١).

لقد ألزم النورسي نفسه حياة الزهد والتأمل والعبادة، وقد صرح في جميع آثاره بخواطر صوفية عميقة تنم عن إشراق روحي وفتح إلهي لا يتوفر مثله إلا لمن جاهد نفسه في الله، فهده الله السبل الواضحة مصداقاً لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (٢)، (٣).

ولكن رغم اعتراف النورسي بخواطره الصوفية إلا أنه " كان مبين لمعشر المتصوفة في تجربته ونهج سلوكه...

لابد من التأكيد - في هذا الصدد - أن الفارق بينه وبين طوائف المتصوفة شاسع جداً، إذ أن الغفلة التي يطلبونها وينضمون فيها على صعيد السلوك، كانت تتم غالباً على حساب الوعي بكيئونة الأمة الإسلامية بمصيرها، بمعنى أن السالك كان يجهد لنفسه في اغتنام الأسرار واللذات، وفي توسيع المرصود الشخصي من اللطائف والسوانح، إذ غايته الأسمى هي تحقيق النجاة والحظوة للنفس حصراً...

أما النورسي فإن روحه التي استماتت في التجرد وطلب التواصل مع الله، قد ظلت متشابكة مع واقع أمته، ومنغرزة في همومها وفيما يكتنفها من أوضاع التأخر والحيدة عن

(١) أ.د/ أحمد محمد الجلي: النورسي وتجهيد دراسات العقيدة، مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٤٢. بتصرف.

(٢) سورة العنكبوت: آية (٦٩)

(٣) وانظر د/ فردوس أبو المعاطي: العدالة والتصوف، مؤتمر العدالة، ص ٦٦٢، بتصرف.

طريق الحق وفيما يتراوحها من ابتلاءات وامتحانات على يد الأعداء •

وكل ذلك جعل النورسي يحيي بوجدانين متلازمين... ووجدان تحركه محبته لله، التي كان ديدنها المطرد أن تتمخض له وتصفو بحيث تتسامي عن رجاء ادني هدف أو حظوة إلا هدف الانصياع لتعاليم الله.

ووجدان آخر موصول بواقع الأمة الإسلامية، ومبتلي بمحنها وبما كانت عليه من أوضاع زرية.

فالنورسي حافظ ويتوازن شاق ومشالي بين قلب يمور بمحبة الله ومخلوقاته، وبين الاهتمام والاعتماد لدين الله وللمصير المتكسب الذي آل إليه أمر المسلمين^(١).

وهذا يبرز لنا أن النورسي " أدرك لحقيقة الصراع الحضاري الذي تمر به الأمة، فخطط لمواجهة المعترك ورد الشبهات المعاصرة بالمنطق العقلي القرآني الواضح " ^(٢)

ولعل هذا ما دعاه أن ينفي عن نفسه أن يكون شيخاً صوفياً فنراه يقول: " أيها السادة إني لست شيخاً صوفياً، إنما أنا عالم ديني " ^(٣)

ونراه كذلك يؤكد أن " مسلك رسائل النور ليس مسلك الطريقة الصوفية بل هو مسلك الحقيقة " ^(٤)

وإذا كان النورسي سجل على نفسه أنه ليس صوفياً، فإن هذا لا يجوز أن يدفع إلى توهم انقطاع صلته بالتصوف متى كان هذا التصوف يعني تزكية النفس واكتساب خصال الخير والتصون من أمراض القلوب، وهذه وظائف لا تتوقف بالضرورة على الانتماء إلى طريقة معينة أو على الالتزام بورد بذاته، لأن تحقيق هذه المعاني هو هم كل مسلم، وهو انشغاله اليومي الدائم " ^(٥)

(١) د. أ. د / عشرات سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص ١٣٧، ١٣٩. بتصرف.

(٢) د / محمد الصمدي: تجديد التصوف عند النورسي، مؤتمر العدالة، ص ٦٧٥. بتصرف.

(٣) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٧٩.

(٤) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٢٦٣.

(٥) د / محمد الصمدي: تجديد التصوف عند النورسي، مؤتمر العدالة، ص ٦٧٥.

ولكن حين لاحظ النورسي عدم تنقية الفكر الصوفي وما علق به من شوائب " وخروجه عن ضوابط الشرعية الصحيحة التي تحفظ للإنسان توازنه واستقامته، إلى مظاهر من السلبية والانحراف والرهبانية " (١) نفي عن نفسه أن يكون شيخاً صوفياً يمثل هذا الاتجاه من الفكر المتسبب للتصوف.

لأنه يرى " أن الخلاص من الآثام وتطهير النفس الإنسانية من أدران الفساد لا يتم في الإسلام باعتزال الحياة الاجتماعية، وإنما يكون باحترام النفس، فيقول: -

" ومحبتك لها - أي إشفاقك عليها - والجهد في تربيتها وتزكيتها ومنعها عن الأهواء الرذيلة تجعلها منقاداً إليك، فلا تسيرك ولا تقيدها بأهوائها، بل تسوقها أنت إلى حيث الهدى دون الهوى " (٢)

إن التربية الروحية في فكر النورسي قائمة أساساً على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، في الدعوة إلى بيان سبل الاستقامة والسلوك الموزون في الحياة، انطلاقاً من قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } (٣)

وقوله عليه الصلاة والسلام " هلك المتنطعون، إن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً " (٤)، (٥)

والقارئ " لرسائل النور " يلحظ أن النورسي أراد بخطة التجديدي والواقعي أن يجدد حب الله في النفوس الخاملة، والقلوب الهامدة، التي تلطخت بحب الشهوات وما تؤدي إليها من بهارج الحياة، وهذا لا يعني قتل الحياة والمادة، ولكن أن يستقيم كيان الإنسان ويتوازن في صراع الحياة حتى يحافظ على إنسانيته ولا يسقط في مستنقع الحيوانية الهابطة، كل هذا وفق نظرة شمولية تدفع الإنسان إلى الحركة والبناء، وتبعده عن السلبية والتواكل

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٦٧٥، ٦٧٦.

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٧٧١.

(٣) سورة الشمس: آية رقم (١٩).

(٤) حديث شريف: رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه.

(٥) د/ محمد الصمدي: تجديد التصوف عند النورسي، مؤتمر العدالة، ص ٦٧٥، ٦٧٦. بتصرف.

وحياة الاستسلام والجبر.

"لذا دعا النورسي أقطاب التصوف المخلصين المتنورين إلى الاندماج في الحياة الإسلامية المعاصرة، والبعد عن كل انزواء أو تقوقع قد يقود في النهاية إلى نزعات طائفية أو عنصرية تستغل أبشع استغلال من طرف الدوائر الاستعمارية لتمزيق الصف الإسلامي الواحد •

هذا بالإضافة إلى أن الطرق الصوفية في هذا العصر لا تستطيع أن تقف أمام قوة الهجوم المشكك في الإسلام، لأنها تعتمد على التجربة الذاتية، ولا تعتمد في إدراك الحقائق على البراهين المنطقية والحجج العقلية والأدلة العلمية التي هي صفة هذا العصر" (١)

ورغم قيمة التجربة الصوفية فإنها لا تعتبر مصدراً مناسباً من مصادر المعرفة التي يمكن أن تواجهه اكتساح الحضارة الغربية المادية المعاصرة •

فهذا العصر في نظر النورسي " ليس بعصر التصوف وطريقه، وإنما عصر إنقاذ الإيمان " (٢)

كما أن الطريق الصوفي طريق صعب وطويل ومحفوف بالمخاطر، ومن ثم فهو طريق غير مأمون، إذ قد ينتهي ببعض سالكيه إلى الضلال والخسران.

ويأخذ النورسي على التصوف انحراف بعض الصوفية المعاصرين الذين قادوا الأجيال إلى الركون والسكون تحت مظلة السير إلى الله تعالى بلا عودة، وهم في هذا يخالفون نهج السابقين من الأولياء الربانيين الذين كانوا يسلكون الطريق إلى الله من أجل العودة إلى الأرض وهم أكثر إيماناً وقوة وعزماً وإقداماً في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثل هذا النهج لا يصلح لمواجهة المخاطر التي يواجهها الإسلام في هذا الزمان من الإلحاد والزندقة والفوضى والأوهام وليس يجدي تجاه هذه المخاطر إلا الاعتصام بحقائق

(١) د/ محمد الصمدي: تجديد التصوف عند النورسي، مؤتمر العدالة، ص ٦٧٧، ٦٧٨.

(٢) بديع الزمان النورسي: الملاحق، ص ٢٨ وانظر الفصل الرابع من هذا البحث (المعرفة في فكر النورسي) عن موقف النورسي وتقييمه للمعرفة الصوفية.

القرآن الكريم" (١)

(١) أ.د/ أحمد محمد الجلي: أعمال مؤتمر العولمة، ص ٢٤٣. وانظر. بديع الزمان: الملاحق، ص ٣٤٤.

موقف النورسي من نظرية وحدة الوجود

كان النورسي واعياً تمام الوعي بتسرب النظريات والحلولية والاتحادية والإشراقية والغنوصية إلى التصوف الإسلامي النقي الملتزم بكتاب الله وسنة رسوله، فحاول تصحيح مقولاته وفضح اتجاهاته المنافية لروح القرآن والسنة النبوية بغية الوصول بالمجتمع المسلم إلى نظام أخلاقي متكامل ومتوازن " (١)

لهذا وجه النورسي نقداً خاصاً لأصحاب وحدة الوجود، وحذر من قراءة كتبهم وأتباع مناهجهم لأنها مناهج مخالفة لمنهج القرآن، وخص من بينهم " محي الدين بن عربي " الواضح الحقيقي للنظرية في إطارها الإسلامي.

وتمثل نقد النورسي للنظرية وأصحابها فيما يأتي:-

إن النظرية تقود إلى إنكار الموجودات، وهو أمر مخالف لتعاليم الإسلام وقيمة، فأبن عربي - كما يقول النورسي - يقول: " لا موجود إلا هو " لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم أمام الله سبحانه وتعالى حتى وصل به الأمر إلى إنكار الموجودات .

وهناك آخرون قالوا: " لا مشهود إلا هو " وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً " (٢)

وهذه النظرة - كما يقول النورسي - لا تتخلو من خطر، إذ أن مبادئ الإيمان تقرر موجودات لا بد على المؤمن أن يقول بها، منها وجود الآخرة.. فالإيمان بالآخرة لا يحتمل أن يقال بخيالها .

لذا وجب التحفظ - كما يحذر النورسي - في فهم مسألة وحدة الوجود..

وإلى ذلك فإنه يوصي " صاحب هذا المشرب ألا يصحب معه هذا المشرب، وألا يعمل

(١) بديع الزمان: المكتوبات، ص ٢٢٤، ٢٢٥. وانظر د/ محمد الصمدي: أعمال مؤتمر العدالة، ص ٦٨٣.

بتصرف

(٢) أ.د/ أحمد محمد الجلي: النورسي وتجديد دراسات العقيدة، مؤتمر العولمة والأخلاق،

ص ٢٤٣. بتصرف.

بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة، ثم إن عليه ألا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، وإلا أوهم نفسه وغيره بالمادية والطبيعية والوقوع في التحلل والابتعاد عن حقيقة الإسلام^(١).

ويبين النورسي أن " هذا المسلك - وحدة الوجود - ليس هو أرفع المراتب الإيمانية، ولا هو بمسلك حقيقي، وإنما هو مشرب أهل السكة والاستغراق وأصحاب الشوق والعشق"^(٢)

كما أن النظرية أو المشرب أو النزعة أو الحال - كما فضل النورسي أن يسميها - مرتبة ناقصة، ولكن لكونها مشربة بلذة وجدانية ونشوة روحية، فإن معظم الذين يحملونها أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطالها أفق"^(٣)

لقد كان النورسي يدرك مخاطر الإغراق في القول بمذهب وحدة الوجود، إذ أدرك المخاطر التي تتوارى خلف هذا المنزع، وكان يسيراً على الطبيعيين الذين أهوا الطبيعة أن يقتنصوا الأبرياء والسذج ممن تطرقتهم أفكار وحدة الوجود من فهم أو استيعاب، فيستدرجونهم إلى الوقوع في مطب الشرك، وأن يخاطبهم قائلين: "نحن وأنتم سواء، نحن أيضاً نقول هكذا ونفكر هكذا ونرى في الطبيعية مجلي ألوهيتنا بل حقيقتها.."^(٤)

علماً أنه لا يوجد مشرب في العالم بعيد عن منهج الماديين وعبدة الطبيعة من مشرب "وحدة الوجود"، ذلك لأن أصحابه يؤمنون بالله إيماناً عميقاً إلى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدوماً بجانب حقيقة الوجود الإلهي، بينما الماديون يولون الموجودات

(١) بديع الزمان النورسي: أنوار الحقيقة، ترجمة إحسان قاسم، ص ٧٣، سوزلر - القاهرة، ٢٠٠٦ م، وانظر د/ عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن: ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ٦١.

(٣) أ.د/ أحمد محمد الجلي: مؤتمر العولمة والأخلاق، ص ٢٤٣. وانظر، بديع الزمان: المكتوبات، ص ١٠٥.

(٤) د/ عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن: ص ١٤٩ وانظر بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٠. وانظر ص ١٠٦، ٤٢٥، ٥٧٩.

من الأهمية إلى حد أنهم ينكرون معها وجود الله تعالى.... فأين هؤلاء من أولئك؟" (١)

وهنا نلاحظ أن النورسي لم يخرج أصحاب مذهب وحدة الوجود من دائرة الإيمان والرمى بهم في حظيرة الكفر، بل تعامل معهم بقدر ما معهم من إيمان حتى لا يكون عوناً للشيطان عليهم ولهذا نجد أنه يعترف بأيمانهم العميق بالله رغم مأخذه عليهم *

بل ويعترف بأن ابن عربي مهتد ومقبول، ولكنه ليس بمرشد ولا هاد أو قدوة في جميع كتاباته، ويعلل بأن سبب ذلك لأنه، يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالق القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله - ظاهراً - الضلالة، غير أنه بريء من الضلالة، إذ الكلام كفراً ظاهراً، إلا أن قائله لا يكون كافراً" (٢)

وهنا نلمس أن النورسي رغم اعتراضه ونقده لمذهب وحدة الوجود، فإنه لم يتعرض لوضعه الحقيقي بأي تجريح، بل نراه ينفي عن ابن عربي الكفر، ويرى أنه بريء من الضلالة.

ولكن رغم دفاع النورسي وثنائه المدفوع بأدب العلماء الأتقياء عن ابن عربي فإن هذا لم يثنى النورسي أن يعلن: " أن منزلة الإيمان القرآني أعلى وأسنى من منزلة القبس اليهودي، ذلك لأن الانصياع لتقريرات الله عز وجل من خلال منطوق كتابه العزيز أولى من تحسس الإيمان من خلال الإستغراقات الروحية التي قد لا يسلم متعاطيها من زلل *

لهذا يقول النورسي: " إن درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الإيمان بالغيب... وميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنما هو دساتير الكتاب والسنة السامية وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية " (٣)

(١) بديع الزمان النورسي: أنوار الحقيقة ص ٧٥، ٧٦ سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٦م.

(٢) بديع الزمان النورسي: اللمعات، ص ٤٤٥. وانظر ص ٥٢-٥٦، ٦١-٦٥، ٤٣٣-٤٤٥.

(٣) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ١٠٥ وانظر د/ عشراتي سليمان: النورسي في رحاب

القرآن، ص ١٤٩.

موقف النورسي من مفهوم الولاية

لقد أسس القرآن الكريم مفهوم الولاية وعرضه عرضاً واضحاً جلياً يقوم على الإيمان والتقوى والإخلاص والمحبة والهداية والتأييد والنصرة من الخالق، وبهذا جاءت آيات القرآن في قوله تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (١) وقال تعالى {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} (٢) إلى غير ذلك من الآيات التي ربطت بين الطاعة والتقوى واللجوء إلى الله، وبين تأييد الله لأوليائه .

وقد حدد " التستري " الولاية على سبعة أصول هما: التمسك بكتاب الله، والإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق "

إلا أن مفهوم الولاية هذا قد اعتراه انحراف، بلغ ببعض الغلاة من المتصوفة إلى القول بأفضلية الولي على النبي .

ولقد سجل أبو حيان في "البحر المحيط" هذا الانحراف بأفضلية الولي على النبي بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام، على أن الخضر أفضل من موسى... واستدلوا بقول أبي يزيد "خضت بحراً وقف الأنبياء بساحلة" وهذا كله من ثمرات الرعونة والظلمة من النفس.

ولما كانت هذه الدعوى ذات صلة وثيقة بالعقيدة، فقد حرص النورسي على أن يكشف عن هذا الانحراف العقدي وما يتطلبه من أدلة مقنعة.

وقد ذكر النورسي في "المكتوب التاسع والعشرين" أن من مزالق بعض الصوفية ممن لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح، هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة " (٣)

(١) سورة يونس: آية رقم (٦٢).

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٢٥٧).

(٣) د/ فردوس أبو المعاطي: أعمال مؤتمر العدالة، ص ٦٦٩، ٦٧٠. وأنظر / بديع الزمان: المكتوبات/

ثم يكشف النورسي أن دعوى بعض سالكي التصوف - من غير أهل الحقيقة - بأفضلية الولاية على النبوة، مصدرها ومنبعها هو الوهم الذي يستحوذ عليهم، حيث أن " ما يتوهمونه بأن ظلال مقامات الولاية ونماذجها المصغرة كأنها هي المقام الحقيقي والكلي والأصلي " (١)

ولزوال هذا التوهم يفرق النورسي بين تلقي النبي للعلوم مباشرة عن الله، وبين انطباع بعض المعارف في قلب الولي، بمثال من يتلقى نور الشمس بواسطة مرآة فيقع له من النور الساقط على المرآة بقدر سعة المرآة... " (٢)

ومن هنا نرى أن النورسي يرفض ما يذهب إليه بعض المتصوفة من تفضيلهم الولاية على النبوة ويؤكد " في الكلمة الرابعة والعشرين والكلمة الحادية والثلاثين من كتاب الكلمات " سمو النبوة على الولاية، وخفوت ضوء الأخيرة أمام نور النبوة " (٣) وأن مقام النبوة لا يمكن أن يرقى إليه أي ولي من الأولياء مهما كانت قيمته.

ويتفق مع النورسي في ذلك القول الإمام " الطحاوي " معبراً عن اعتقاد أهل السنة فقال: " لا نفضل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء " (٤)

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٩. وانظر أنوار الحقيقة، ص ٥٣، ١١٢.

(٢) بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص ٦٦٩.

(٣) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٨.

(٤) د/ فردوس أبو المعاطي: أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ٦٧١. بتصرف.

موقف النورسي من إسقاط بعض المتصوفة للسنة النبوية

يتفق النورسي مع سائر علماء السنة أن أفضل سبيل موصل إلى الولاية هو سلوك نهج السنة المطهرة فيقول: " إن إتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وأمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها، والمريد الحق - في نظره - هو المتبع لما تقرره الشريعة، فيلتزمها بحذافيرها، إذ الإتيان يعني تحريي المسلم السنة السنية، وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله " (١)

" كما أن آداب الشريعة كما سنها سيد المرسلين، والتي هي ثمرة الوحي، هي أسمى وأعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الإلهام.. ومن هنا كان أساس الطريقة هو إتباع السنة النبوية " (٢) حيث " أن آداب الطريقة وأوراد التصوف وما يحصل للسالك منها من أذواق، ينبغي أن تكون مدخلاً لأذواق أحلى وأعلى وأسمى، يحصل عليها هذا السالك من أداء الفرائض والسنن " (٣)

ونجد النورسي يصف من يفضلون الأوراد الصوفية على أذكار السنة النبوية بنعوت قاسية بأنهم متطرفين ومتعصبين جداً، فيقول: " إن بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة يرجحون أوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة النبوية، فيسقطون بذلك إلى منزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذين يظنون متشبهين بأوراد طريقتهم، أي أنهم يسلكون سلوك غير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة فيهورون في الورطة " (٤)

ويؤكد النورسي بعد ذلك أن إتباع السنة والتمسك بها أفضل عند الله من مئات الأوراد الخاصة كما أن سنة واحدة أفضل ألف مرة من آداب التصوف، فيقول " إن إتباع سنة واحدة من السنة النبوية يكون مقبولاً عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة،

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨١.

(٢) د.أ / عشراي سليمان: النورسي في رحاب القرآن، ص ١٥٢.

(٣) بديع الزمان النورسي: أنوار الحقيقة، ص ٨٣، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٦م.

(٤) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٨.

إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح ألفاً من السنن، فإن سنة واحدة من السنن النبوية ترجح ألفاً من آداب التصوف^(١)

ونلاحظ أن نقد النورسي ورفضه لإسقاط بعض المتصوفة لأوراد السنة وعدم تمسكهم بالسنن النبوية مرجعه لأن ذلك مخالف لقول الله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ }^(٢)

وقوله تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }^(٣)

إذاً فسبب رفضه لأن ذلك مخالف للشرع هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن من أسباب رفضه لذلك، لأن عدم إبتاعهم للسنة أوقعهم في ورطة اعتقادهم بأفضلية الولاية على النبوة .

ومما يؤيد ذلك قول النورسي: " إن الولاية التي يسقط فيها سالكون من الطرق الصوفية ممن لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة"^(٤)

إذاً فعدم إبتاعهم للسنة وانحرافهم عن المنهج الشرعي الصحيح كان سبباً في وقوعهم في كثير من المزالق والتوريطات.

ولم يكن النورسي واقفاً عند حد الرفض لإسقاط بعض المتصوفة للسنة والأذكار، بل انتقل بموقفه الراض لكل أمر يخالف العقيدة ويتنافى مع إنسانية الإنسان ويعوق تفاعله مع الكون والحياة.

فتراه يأخذ على بعض المتصوفة إسقاطهم للتكاليف الشرعية فيقول: " إن بعض

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٨.

(٢) سورة الأحزاب: آية رقم (٢١)

(٣) سورة الحشر: آية رقم (٧)

(٤) بديع الزمان النورسي: أنوار الحقيقة، مباحث في التصوف والسلوك، ص ٨٩.

المتصوفة ممن لم يدركوا تماماً سر الطريقة - في كونها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها - قد ينجذبون ويتوجهون إلى ما يفاض عليهم من الكرامات والأذواق والأنوار تلك التي تروهب ولا تسأل، إذ يمنحها الله سبحانه تقوية للضعفاء، وتشجيعاً للمتكاسلين، وتخفيفاً من المشقة والسأم - الذي يعترهم من شدة الإجهاد في العبادة - فينجرون إلى تفضيل تلك الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين والخدمة تحت لوائه وقراءة الأذكار والأوراد، فيسقطون في هذا المزلق " (١)

ولعلنا نلاحظ أن ما بحثه النورسي من مزالق وورطات (كما فضل النورسي أن يسميها) بعض الصوفية، وتسجيل رفضه لهذه الأمور الخارجة عن المنهج الشرعي وفيها مخالفة للعقيدة فهذه الأمور والمزالق هي التي جرت بعض المتصوفة إلى سيادة الفخر والادعاء وإشاعة الشطحات الخاصة بهم، فيقول: "ومن المزالق التي يقع فيها قسم من أهل الأذواق والأشواق من أصحاب الطرق عندما ينصرفون إلى الفخر والادعاء وإشاعة الشطحات وطلب توجّه الناس ونيل المرجعيات الدينية، ويفضلون هذه العجالات على الشكر والتضرع والحمد والاستغناء عن الناس، بينما عبودية "محمد صلى الله عليه وسلم" هي أسمى مرتبة في العبودية التي نستطيع وصفها بالمحبووية أو عبودية المحبة.....

نعم إن عدداً من الأولياء الكبار اضطروا - دون اختيار منهم لغلبة الحال وبشكل مؤقت فقط - إلى الخروج إلى ساحة الفخر والطلب والشطحات •

لذا فلا يجوز إتباعهم اختياراً في حالهم هذه، فهم مهتدون، ولكنهم هنا وفي هذه النقطة بالذات ليسوا قدوة في الهداية •

لذا لا يمكن السير ورائهم والإقتداء بهم " (٢)

ثم يبين النورسي أن سر وقوعهم في هذه الورطة هو تعجلهم لكسب منافع ذاتية في الدنيا فيقول: "وهي الورطة التي يتورط فيها قسم من المتعجلين والقاصدين المنافع الذاتية من أهل الطرق من الذين يرغبون في تناول ثمرات الولاية في الدنيا بدلاً من قطعها

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٩.

(٢) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٩٠.

في الآخرة" (١)

ومن أجل الخروج من هذه المزالق والورطات وغيرها ممن وقع فيها بعض الصوفية فإن النورسي ينصحهم أن يتحصنوا بالإيمان وبالشرع، فيقول:-
 "ولإنقاذ أنفسهم من جميع هذه المزالق المذكورة سابقاً، عليهم أن يضعوا أصول الإيمان وأسس الشرع نصب أعينهم ويتخذوها مرشداً دائماً لهم، وأن يخالفوا أذواقهم ومشهوراتهم ويتهموها عند تعارضها مع تلك الأسس" (٢)

(١) بديع الزمان النورسي: المکتوبات، ص ٥٩٠.

(٢) بديع الزمان النورسي: المکتوبات، ص ٥٩٠.

النورسي ينتصر للطريقة

نلاحظ أن النورسي إذا كان قد بحث الكثير من المزالق والورطات التي وقع فيها بعض الصوفية فإن هذا لا يعني رفضه للتصوف، بل نراه " ينتصر للطريقة، إذ يرى فيها مدداً استراتيجياً يفيد في معركة المرابطة والصمود الروحيين ضد احتياجات الغرب المادي، ويرفض النورسي ما يصدره البعض من أحكام في حقها وما يستهدفونها به من طعن وتعطيل.

فلقد أدرك النورسي الوظيفة الخلقية للطريقة وإسهامهم الروحي الفعال في تعضيد التوجه الإسلامي المعاصر. " (١)

ويرى النورسي أن للتصوف مميزات عديدة لا يمكن تجاهلها، فيقول: " إن ما جاءت به الشريعة من حقائق الأحكام، فإن الطريقة برهان على أحقية تلك الأحكام وعلى صدورها من الحق تبارك وتعالى بما استفاضت منها واستفادت بكشفياتها وأذواقها " (٢)

ورغم أن النورسي لا ينفي النقص عن أهل الطريقة، فإنه يثبت في الوقت نفسه قيمتها الفعالة، على الرغم مما يشوبها كثافة وإجتهادات روحية من قصور أو ضعف يجسده بعض الأتباع الذين ابتعدوا بمذاهبهم عن جوهر العقيدة، أو أولئك الذين انتسبوا إليها تضليلاً ومكراً وأطلقوا على أنفسهم اسم الطريقة كيداً للإسلام .

لقد كان دليل النورسي على أهمية الطريقة، ذلك الدور الذي ظلت تلعبه باعتبارها وسيلة تأخي المسلمين وواسطة جمع وتقريب بينهم، إذ أن الطريقة هي في مقدمة الفعاليات الإيمانية التي توسع من دائرة الأخوة الإسلامية، وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي.

ويذكر النورسي لنا بعض فوائد الطريقة في "التلويح التاسع من المكتوبات" قائلاً:-
" إن الطريقة سبيل ليغدو المرء مؤمناً حقاً، ليسمو إيمانه ليلبغ درجة عين اليقين، وتهتم بالقلب الذي إذا صلح صلح الجسد كله .

(١) د/ فردوس أبو المعاطي: العدالة والتصوف، مؤتمر العدالة، ص ٦٧١. بتصرف.

(٢) بديع الزمان: المكتوبات، ص ٥٧٣.

وأيضاً من أهدافها وفوائدها: هي أن يتحول أداء المرء للتكاليف الشرعية إلى نوع من التمتع بالعبادة....^(١)

ورغم ما قيل عن بعض الطرق الصوفية من مزلق وقعت فيها نتيجة ابتعادها عن المنهج الشرعي ومخالفتها لبعض أمور العقيدة، فإن التاريخ يسجل بأحرف من نور أن التصوف الصافي المتبع لمنهج الشرع كان وما يزال أحد العلامات المضيئة في تاريخ الإسلام.

ومما سجل العلماء عن دور التصوف، أنه كان سبباً في انتشار الإسلام في كثير من البلدان وكان درعاً واقياً ضد أي اعتداء على بلاد المسلمين •

هذا بالإضافة إلى تفعيلهم لدور التضامن الاجتماعي والمواخاة الإسلامية، فالنورسي نفسه لولا الزوايا والتكايا الصوفية ما أستطاع أن يتعلم حرفاً واحداً، بل أن النورسي ذاته يقر بفضل علماء التصوف في عصره ويشهد بفضلهم ومكانتهم •

(١) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٧١، ٥٩٧. وانظر. د/ فردوس أبو المعاطي: العدالة والتصوف، ص ٦٧١.

النورسي ورؤيته التجديدية للمنهج صوفي

" بعد أن حدد النورسي موقفه من الصوفية والتصوف، والمتمثل في رفضه لنظريات التصوف الفلسفية كالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ووحدة الشهود " (١) قدم النورسي طريقاً آخر أكثر أماناً وأيسر مسلكاً، بدلاً من طريق التصوف الضيق الخطر الذي لا تؤمن عواقبه " فيقول: - " للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة وسبل عديدة، ومورد جميع الطرق الحققة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم، إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم ، وقد استفدت من فيض القرآن الكريم بالرغم من فهمي القاصر، طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو: - طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكير.

نعم إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله، بل أقرب وأسلم، إذ هو يوصل إلى المحبوبة بطريقة العبودية.

والفقر مثله يوصل إلى اسم الله "الرحمن.

وكذلك الشفقة... إذ هو يوصل إلى اسم الله "الرحيم".

والتفكير.... إذ هو يوصل إلى اسم الله "الحكيم".

فهذا الطريق عبارة عن أربع خطوات فحسب، وهو حقيقة شرعية أكثر مما هو طريقة صوفية

ولا يذهبن بكم سوء الفهم إلى الخطأ...، فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه وليس إظهاره أمام الناس.

أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتتخصر في أتباع السنة النبوية... والعمل بالفرائض ولاسيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان، والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر، أما منابع هذه الخطوات فهي من القرآن الكريم " (٢)

ومن خلال ما سبق يتضح أن الطريقة التي حدد النورسي خطواتها ومراتبها الأربع

(١) أ.د/ أحمد محمد الجلي: النورسي وتجديد دراسات العقيدة، ص ٢٤٦.

(٢) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٩٤، ٥٩٥.

تستقي منابعها من القرآن والسنة، ويؤكد على أهمية التكاليف الشرعية.

ومن هنا يمكن القول أن التصوف عند النورسي هو وسيلة لفتوحات ربانية في قراءة القرآن وسيلة لكشف تجليات الحقائق القرآنية، وليس معبراً للشطحات والادعاءات، أو إعدام الكائنات وسجنها.

" فالنورسي يعتبر التصوف مرحلة من مراحل الارتقاء الإياني وليس قمة هذا الارتقاء وثمة درجة أعلى منها وأسمى هي درجة التلقي عن القرآن الكريم مباشرة... "

ومن ثم أعتبر القرآن الكريم هو الأستاذ والشيخ والإمام الذي ينبغي للمسلم أن يستمد منه الهمم والإمداد " (١)

" وعلى هذه الشاكلة يؤسس النورسي لمدرسة إيانية صلبة، تقوم على روح الإنصاف والنصيحة والإخلاص وانرجوع إلى التصوف إلى ينابيعه الأولى من أجل صياغة جديدة لبنية الإنسان المسلم وإعادته إلى التوازن القرآني الذي فقده طوال عصور الانحطاط، وأزداد مع بداية احتكاكنا بالحضارة الغربية " (٢)

وخلاصة القول:-

أن النورسي قام بعملية مراجعة كبرى لرصيد الأمة من العقيدة وفق نظراً شمولية وتخطيط هادئ، فلاحظ أن التصوف الذي كان قائماً على تربية الروح وتطهير النفس الإنسانية، وتجسيد القيم الإسلامية الرفيعة، أصبح في العصور المتأخرة أسرع الميادين في الثقافة الإسلامية تعرضاً للانحلال، وعاملاً من عوامل التخلف وأصبح بعض دعاة التصوف معاول للانحراف والهدم، واصطبغ الدين بصبغة الجريل والتخريف، وتفضيلهم التقليد على الاجتهاد والابتكار، والاتجاه نحو الشعوذة والتدجيل، فكانت النتيجة أن يرتمي الجيل الجديد من الشباب المسلم في أحضان الثقافة المادية العلمانية.

بل إن بعض الطرق الصوفية، تحولت في أغلب الأحوال، إلى مراكز لا يتزاد أموال

(١) أديب إبراهيم الدباغ: مطارحات في المعرفة الإيانية ص ٣٤، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٧

(٢) بديع الزمان النورسي: المكتوبات، ص ٥٧٣.

الأتباع والمريدين واستعبادهم، وإلى أبواب لمحاربة ما تبقى من العلوم العقلية والعلمية وأضحى بعض المتصوفة يتجاوزون المنهج والمفاهيم، فأصبحوا ينزلون مفاهيم الفن الصوفي منزلة مفاهيم الوحي، التي سرعان ما تتحول فيما بعد، إلى مفاهيم متأخرة على المفاهيم الصوفية، وهكذا فإنهم:-

- أنزلوا المجاز منزلة الحقيقة وقدموا المجاز عليها.
- وأنزلوا الولاية منزلة النبوة وقدموا الولاية عليها.
- وأنزلوا الباطن منزلة الظاهر وقدموا الباطن عليه.
- وأنزلوا الأوراد الصوفية منزلة الأذكار السنوية وقدموا الأوراد عليها.
- وأنزلوا الإلهام منزلة الوحي وقدموا الإلهام عليه.
- وأنزلوا الكرامات منزلة المعجزة وقدموا الكرامة عليها.

لمثل هذه المواقف وغيرها، انبرى النورسي ليبرهن على عكسها، وهذا ما جعله يؤكد مراراً أنه ليس برجل تصوف، وأن رسائله تختلف عن كتب الصوفية والأولياء السابقين، ولكنها هي شرح لحقائق القرآن.

كما أنه بذل كل مساعيه من أجل اكتمال حرية الإنسان المسلم، عدم استعباد الفرد للفرد... بأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وذلك من خلال رفضه ونقده لفكرة فناء المريد في الشيخ، وهذا ما جعله يستبعد أن تكون العلاقة بينه وبين أتباعه وطلابه من باب العلاقة بين الشيخ والمريد، لأن الشيخ لا يملك الحق ولا اليقين، وإنما الحق واليقين في البرهان.

وهكذا قتل النورسي الصنميات التي أحاطها الإنسان بالإنسان ليجعلها في البرهان كما أنه أزال فكرة تقديس الأفراد، من أجل ألا يسلب أحدنا حرية الآخر ويجعله أسيراً له، ومن أجل تفعيل دور العقل للوصول إلى معرفة الله، بعيداً عن الشطحات والخيالات التي قد يمسك بزمامها الشيطان فيردي صاحبها في هاوية الكفر.

ولهذا فإننا نستطيع القول أن أبرز دوافع النورسي لمعالجته للتصوف أمرين:-

- تحرير الإنسان من رق الإنسان.

- دافع معرفي.

ومن أجل تأسيس مذهب في السلوك، بنى النورسي منهجاً معرفياً جديداً يقوم على القرآن والسنة، كي يتحرك الإنسان بخطاهم، وهو منهج يتحد فيه العقل والقلب معاً. وهذا المنهج هو أسلم وأعم، وهو مستفاض من فيض القرآن ويمثل طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً من أجل الوصول لمعرفة الله، وهو:
طريق العجز... الفقر... الشفقة... التفكير